أمير المؤمنين

عبد الله بن الزبير بن العوام

رضي الله عنهما

ويليه

الحجاج بن يوسف الثقفي

إعداد

أحمد عزوز أحمد الفرخ

الناشر
المكتبة المحمودية
ت: ٥١٠٣٠٦٧ - ٥١٤٥٣٢٠

حقوق الطبع محفوظة للدار

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع : ٢٠٦٣٦/٢٠٠٥

الناشر

المكتبة المحمودية

١٢٧ ميدان الأزهر – ت : ٥١٠٣٠٦٧

٩ درب الأتراك – خلف الجامع الأزهر – ت : ٥١٤٥٣٢٠

تقديم

الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما شخصية إسلامية فذة عاصر أحداثًا كثيرة في الإسلام ، والكتابة فيها تحتاج إلى مجلدات وهو سليل لصحابة أجلاء من جهة الأب والأم والجدود وهو شرف رفيع له .

وعُد من الخلفاء لأنه بويع بالخلافة في عام ٦٤ هـ الموافق عام ٦٨٣ م بعد وفاة يزيد بن معاوية من جميع الأمصار الإسلامية ولكن لم يتم الأمر له عمومًا لأنه في الشام أحييت الخلافة الأموية مرة أخرى على يد مروان بن الحكم فكان هو خليفة ومروان بن الحكم معه خليفة على المسلمين ، وكان للمسلمين حاكمان في وقت واحد !!

وأخيرًا انتصرت الخلافة الأموية وأجهضت حركته في عام ٧٣ هـ الموافق عام ٦٩٢م فظلت بذلك خلافته تسعة أعوام وهو شخصية محورية لوغاريتمية وزئبقية ذات متناقضات عدة ويتعجب لها القارىء فكان يجمع بين البخل والإيمان والتفسير والتنسك والعطف والكره والشجاعة والحذر ورغم كل هذا كان قوامًا صوامًا .

فسلام عليك يا أبا بكر ويا أبا خبيب وملحق بهذا الكتاب بحث منفصل عن الطاغية الذى عاصر الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام الطاغية الحجاج ابن يوسف الثقفى في نهاية الكتاب .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وسلم الغر المحجلين وأمهات المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين .

محب لأهل البيت
سليل قبائل الأنصار الخزرج
الأنصارى الخزرجى / أحمد عزوز أحمد الفرخ
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

أمير المؤمنين
عبد الله بن الزبير بن العوام

عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب أمير المؤمنين أبو بكر وأبو خبيب القرشى الأسدى المكى (وهذه كانت كنيته) ثم المدنى ، أحد الأعلام ولد الحوارى الإمام أبى عبد الله (الزبير ين العوام) ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه .

مولده :

أول مولود ولد بعد الهجرة بالمدينة المنورة من المهاجرين ، وأمه السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين هاجرت وهى حامل به ثم ولدته بقباء أول مقدمهم المدينة .

وقيل عن أسماء إنها حملت بعبد الله بمكة ، قالت فخرجت به وأنا متم (أتمت شهور الحمل) فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعه على حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ قالت ثم حنكه ثم دعا له وتبرك عليه فكان أول مولود ولد في الإسلام ؛ لأنه لما قدم المهاجرون أقاموا لا يولد لهم فقالوا سحرتنا يهود حتى كثرت المقالة في ذلك فكان أول مولود ابن الزبير فكبر المسلمون تكبيرة واحدة حتى ارتجت المدينة وأمر النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله عنه (جده لأمه) فأذن في أذنيه بالصلاة وسماه عبد الله وكناه بأبى بكر ، ويقال : إن جده أبا بكر الصديق رضى الله عنه طاف به المدينة حين ولد بسبب ذلك ، وكنى النبي ﷺ زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها به بعد أن استأذنت الرسول صلوات الله عليه وسلم تسليمًا فكان يقال لها أم عبد الله باسم ابن أختها عبد الله بن الزبير .

وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما عريق النسب من جهة أبيه وأمه ونشأته عالية رفيعة فوالده الزبير بن العوام أحد السابقين الأولين وأحد أبطال المشاهير في الجزيرة العربية . قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين ما أحد سيفك !! فغضب وقال : ليس السيف ولكن اليد التى ضربت به .

وأمه أسماء المرأة التى اشتهرت بالحكمة والفصاحة وثبات الجنان وجده لأمه من خير الأجداد إنه طيب الذكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى تجمعت له أكرم الصفات وأسمى الخلال وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ أسلمت وهاجرت ، وخالته عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول ﷺ فعاش في بيوت الرياسة والسؤدد بيت الرسول ﷺ حيث قيل إن ابن الزبير أدرك من حياة

رسول الله ﷺ ثمانية أعوام وأربعة أشهر وكان ملازمًا للولوج على رسول الله لكونه من آله فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة رضى الله عنها .

ولما ترعرع عبد الله بن الزبير وبلغ من السن سبع سنوات اصطحبه أبوه الزبير ابن العوام رضى الله عنه إلى النبي ﷺ فبايعه . وفي رواية عن عروة بن الزبير عن أبيه قال : إن رسول الله كلم في غلمة ترعرعوا منهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمر بن أبي سلمة رضوان الله عليهم .

فقيل : يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ؟ فأتى بهم إليه فكأنهم تكعكعوا (ترددوا) واقتحم عبد الله بن الزبير فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « أنك ابن أبيه » وبايعه .

وقد روى من غير وجه أن عبد الله بن الزبير شرب من دم النبي ﷺ كان النبي ﷺ قد احتجم في طست فأعطاه عبد الله بن الزبير ليريقه فشربه فقال له : « لا تمسك النار إلا تحلة القسم وويل لك من الناس وويل للناس منك » وفي رواية أنه قال له : « يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهريقه حيث لا يراك أحد » ، فلما بعد عمد إلى ذلك الدم فشربه فلما رجع قال : « ما صنعت بالدم » ، قال : إنى شربته لأزداد به علمًا وإيمانًا وليكون شيء من جسد رسول الله ﷺ في جسدى وجسدى أولى به من الأرض فقال : « أبشر لا تمسك النار أبدًا وويل لك من الناس وويل للناس منك » .

ويقول السيوطى : إنهم كانوا يرون أن القوة التى به من ذلك الدم .

لم يدرك ابن الزبير شيئًا رضى الله عنه من غزوات الرسول ﷺ ومع وفاة الرسول ﷺ انتقلت الخلافة إلى جده أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعن عروة أخيه قال : لم يكن أحد أحب إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد رسول الله ﷺ من أبى بكر الصديق وبعده إلا ابن أختها عبد الله بن الزبير .

ولكن ما لبث أن توفي جده أبو بكر الصديق رضى الله عنه وتولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فيقال أنه شارك في غزوة اليرموك مع أبيه الزبير بن العوام وهو صبى ويورد ابن الأثير له رواية في عهد عمر بن الخطاب : (أول ما علم من همة ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي فمر به رجل فصاح عليهم ففروا ومشى ابن الزبير القهقرى وقال : يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه ففعلوا) ، ومر به عمر بن الخطاب وهو يلعب ففر الصبيان ووقف هو فقال له عمر : ما لك لم تفر معهم ؟ فقال : لم أجرم فأخافك ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

وما أن قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أبوه من

المرشحين للخلافة وكان له فيها أطماع ، وهذا دفع عبد الله إلى حب الرياسة وتمنى السلطان وغريزة حب السلطة طبيعية ، ونمتها هذه الظروف في بطل حديثنا ونماها كذلك ذكاء فيه وورع وإحساس بالكمال أو ما يقرب من الكمال .

ولكن قامت دونه حواجز كما قامت دون أبيه فبنو هاشم وبنو أمية أعرق محتدًا وأوسع جاهًا وأكثر أنصارًا ، ومن هنا دب فيه عامل الغيظ وإذا اجتمع الغيظ والذكاء والحرمان كانت النتيجة نارًا ملتهبة يمتد لهيبها فيحرق الكثير .

وهذا المفتاح الذى يبرز لنا حقيقة الرجل طموح للرياسة وإدراك أن دونها عقبات ، وعجز عن مقابلة هذه العقبات وجهًا لوجه وحيل مختلفة فيها حنق وغيظ لإزالة العقبات من طريقه ، وأنا أعتقد أن هذه البداية كانت لقيام حزب ينادى بالخلافة في آل أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

حيث أن الزبير رضى الله عنه زوج السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها ومعه طلحة رضى الله عنه وهو من رهط أبي بكر الصديق رضى الله عنه وزوج السيدة أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها وكانت معهم السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وهذا ما سنشرحه فيما بعد . .

عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إبان الفتنة الكبرى:

عندما تولى الخلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه لم تظهر هذه الأطماع في عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان لم يحرك الأحداث إلا مع عزل عمرو بن العاص في عام ٢٥هـ الموافق عام ٦٤٦م من ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى لم يكن له سابقة في الإسلام سوى أنه أخوه من الرضاعة .

وهذا يظهر لنا في البدء مع حادثة موقعة سبيطلة (صفاقس - تونس) التى حدثت في عام ٢٧ هـ الموافق عام ٦٤٨ م حيث يروى المؤرخون مهارة عبد الله العسكرية فيقول الطبري في تاريخ الأمم والملوك من رواية له : (هجم علينا جرجير في عشرين ومائة ألف فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا يعنى نوبة إفريقية - أى حصار عسكري - واختلف الناس على ابن أبى سرح فدخل فسطاطه فرأيت غرة - أى مكان غير محصن - من جرجير بصرت به خلف عساكره على برذون أشهب معه جاريتان تظلان عليه بريش الطواويس بينه وبين جيشه أرض بيضاء فأتيت أميرنا ابن أبى سرح فندب لي الناس فاخترت ثلاثين فارسًا وقلت لسائرهم البثوا على مصافكم وحملت وقلت لهم احموا ظهرى فخرقت الصف إلى جرجير وخرجت صامدًا وما يحسب هو ولا أصحابه إلا أنى رسول إليه حتى دنوت منه فعرف الشر فثابر برذونه موليًا فأدركته فطعنته فسقط ، ثم احتززت رأسه فنصبته

على رمحى وكبرت وحمل المسلمون فارفض العدو ومنح الله أكتافهم ، وبعث عبد الله بن أبى سرح ابن الزبير بشيرًا إلى عثمان بن عفان بذلك ، فذهب ابن الزبير وقص على عثمان بن عفان رضى الله عنه الخبر وكيف قتل جرجير ، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدى هذا للناس فوق المنبر فافعل. قال: نعم ، فصعد عبد الله بن الزبير المنبر ، فخطب الناس وذكر لهم كيفية ما جرى. قال عبد الله : فالتفت فإذا أبى الزبير بن العوام في جملة من حضر ، فلما تبينت وجهه كاد أن يرتج على في الكلام، فرمزنى بعينه ، وأشار إلي ليمضني فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: لكأنى أسمع خطبة أبى بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بنى . ومن هنا تحدث الناس عن فضل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه في موقعة سبيطلة مما جعلهم يتلاومون على عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وكان سن عبد الله بن الزبير بن العوام في هذه الموقعة الرهيبة ستة وعشرون عامًا ، وهذا يدل على إقدامه وشجاعته وحبه للرياسة من الصغر .

فاستعان به أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه في فتح طبرستان في عام ٣٠ هـ الموافق عام ٦٥١ م ويروى الطبرى في ذلك ، ويروى ابن خلدون في الجزء الثانى من كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (ص٥٥٧) عن قصة كتابة المصحف الذى شارك فيها عبد الله في نفس عام غزو طبرستان بعد عودة الصحابي الجليل حذيفة ابن اليمان العبسي رضى الله عنه قائد الجيش الإسلامى الفاتح (وهو حفيد ابن عم عنترة بن شداد البطل العربي المغوار في الجاهلية الذى مات بعد ظهور الإسلام بخمسة أعوام) الذى رأى الاختلاف في قراءة القرآن الكريم فأمر عثمان رضى الله عنه بنسخ المصحف الذى نسب له المصحف العثمانى .

وفي سنة ثلاثين هجرية هذه صرف حذيفة من غزو الري (إيران) إلى غزو الباب (أذربيجان) مددًا لعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي (القائد الإسلامى المعروف) وأقام له سعيد بن العاص بأذربيجان ردءًا حتى عاد بعد مقتل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي (قتله في موقعة الباب) فأخبره بما رأى من اختلاف أهل البلدان في القرآن وأن أهل حمص يقولون قراءتنا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد، وأهل دمشق يقولون كذلك، وأهل البصرة عن أبي موسى، وأهل الكوفة عن ابن مسعود، وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن ، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فأغلظ عليهم وخطأهم فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وافترق المجلس، وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال : أنا النذير العريان فأدرك الأمة ، فجمع عثمان

الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة ، فأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب أن ابعثى إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هى التى كتبت أيام أبي بكر فإن القتل لما استحر في القراء يوم اليمامة (أى موقعة اليمامة) قال عمر لأبي بكر : أرى أن تأمر بجمع القرآن لئلا يذهب الكثير منه لفناء القراء ، فأبى وقال: إن رسول الله ﷺ لم يفعله ثم استبصر ورجع إلى رأى عمر وأمر الصحابي الجليل زيد بن ثابت بجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال ، وكتب في الصحف فكانت عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة، وأرسل عثمان فأخذها وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام (كان من الشباب الأتقياء ويعرف بالشريد) أن ينسخوها في المصاحف . وقال : إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا ، ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفق بمصحف يعتمد عليه، وحرق ما سوى ذلك الصحابة في سائر الأمصار ، ونكره عبد الله بن مسعود في الكوفة حتى نحاهم عن ذلك وحملهم عليه .

ولكن حدث في هذه الفترة عكر الهدوء الذى كانت عليه دومًا الخمسينيات من القرن السابع الميلادى حيث أنها درة كل قرن فبذرت الفتنة بذورها بين المسلمين وكان الزبير وابنه عبد الله لهم حزب سياسي مستقل يرنو إلى الخلافة ببصره ويعمل لها جاهدًا مستغلاً الفرص حيث أنهم من بني عبد العزى بن قصى أى قريش بواطن ولهم السيادة في مكة مثلهم مثل بني عبد مناف ويتمنون الخلافة في ذلك وفوق ذلك الزبير أمه السيدة صفية بنت عبد المطلب من آل البيت ، حيث يروى ابن خلدون في نفس المصدر ما هو الدافع لهذه الفتنة بقوله : (ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعماله ، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة ، جاؤوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علمًا منه ، وقال : أشيروا علي وأنتم شهود المؤمنين ، قالوا : تبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالخبر فأرسل الصحابي الجليل الأنصارى الأوسي محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها فرجعوا ، وقالوا : ما أنكرنا شيئًا ولا أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم ، وتأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) وأصحابه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر ، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار : أن قد رفع إلي أهل المدينة أن عمالي وقع منهم أضرار بالناس وقد أخذتهم بأن يوافونى في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه منى أو من عمالى ، أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

ويروى ابن خلدون الموقف البطولي الذى قام به عبد الله بن الزبير رضى الله

عنهما في الدفاع عن عثمان بن عفان رضى الله عنه بقوله : فسكت عثمان ولزم الدار وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير .

وكانت مدة انحصاره أربعين يومًا ، ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتد الانحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء ، وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين يطلب الماء فركب علي إليهم مغلسًا وقال : يا أيها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين وإنما الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى . فقالوا : لا والله ونعمة عين ، فرجع وجاءت أم المؤمنين أم حبيبة على بغلتها مشتملة على إداوة وقالت : أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أمية أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم ، فقالوا : لا والله ، وضربوا وجه البغلة فنفرت وكادت تسقط عنها وذهب بها الناس إلى بيتها ، وأشرف عليهم عثمان وقرر حقوقه وسوابقه فقال بعضهم : مهلاً عن أمير المؤمنين، فجاء الأشتر النخعي وفرق الناس وقال : لا يمكر بكم ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها (محمد) فأبى، فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل ، ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف . ثم ذهب حنظلة إلى الكوفة وبلغ طلحة والزبير ما لقى علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم ، وكان آل حزم الأنصاري يدسون الماء إلى بيت عثمان في الغفلات ، وكان ابن عباس ممن لزم باب عثمان للمدافعة فأشرف عليه عثمان وأمره أن يحج بالناس ، فقال : جهاد هؤلاء أحب إلي فأقسم عليه وانطلق . .

ولما رأى أهل مصر أن أهل الموسم يريدون قصدهم ، وأن أهل الأمصار يسيرون إليهم اعتزموا على قتل عثمان رضى الله عنه يرجون في ذلك خلاصهم واشتغال الناس عنهم ، فقاموا إلى الباب ليقتحموه فمنعهم الحسن بن علي ، وابن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة وقاتلوهم وغلبوهم دون الباب ، ثم صدهم عثمان عن القتال وحلف ليدخلن فدخلوا وأغلق الباب فجاؤوا بالنار وأحرقوه ، ودخلوا وعثمان يصلى وقد افتتح سورة طه ، وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ فقرأ : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ .

ثم قال لمن عنده إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهدًا فأنا صابر عليه ، ومنعهم من القتال وأذن للحسن في اللحاق بأبيه وأقسم عليه فأبى وقاتل دونه ، وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق قد تعجل من الحج في عصابة لنصره فقاتل

حتى قتل . وجاء أبو هريرة ينادي يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار وقاتل ، ثم اقتحمت الدار من ظهرها من جهة دار عمرو بن حزم فامتلأت قومًا ولا يشعر الذين بالباب ، وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى فخرج ، ودخل آخر ، ثم آخر كلهم يعظمه فيخرج ويفارق القوم، وجاء عبد الله بن سلام فوعظهم فهموا بقتله ، ودخل عليه محمد بن أبى بكر فحاوره طويلاً بما لا حاجة إلى ذكره ثم استحيا وخرج ، ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة امرأته تتقى الضرب بيديها فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها ، ثم قتلوه وسال دمه على المصحف ، وجاء غلمانه فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلاء أخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى نائلة ، وقتل الغلمان منهم وقتلوا من الغلمان ، ثم خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه ، وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء فقال ابن عديس : اتركوه .

ويقال إن الذى تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي وطعنه عمر بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضابيء وكان أبوه مات في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعًا من أضلاعه ، وكان قتله لثمان عشرة خلت من ذى الحجة لعام ٣٥ هـ وبقى في بيته ثلاثة أيام . ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم إلى علي فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير ، والحسن ، وأبو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب ، وصلى عليه جبير ، وقيل : مروان ، وقيل : حكيم ، ويقال : إن ناسًا تعرضوا لهم ليمنعوهم من الصلاة عليه ، فأرسل إليهم علي وزجرهم ، وقيل : إن عليًا وطلحة حضرا جنازته ، وزيد بن ثابت، وكعب ابن مالك .

يروى ابن خلدون نقلاً عن الطبرى رواية تؤكد على حركة الحزب في الفترة الأخيرة من حياة عثمان بن عفان رضى الله عنه وأنه رضى الله عنه شعر بذلك فيقول ابن خلدون : (قيل إن عليًا بن أبى طالب كان عند حصار عثمان بخيبر فقدم والناس مجتمعون عند طلحة فجاء عثمان وقال : يا علي إن لي حق الإخاء والقرابة والصهر ، ولو كان أمر الجاهلية فقط كان عارًا على بني عبد مناف أن تنزع تيم أمرهم ! فجاء علي إلى طلحة وقال : ما هذا ، فقال طلحة : أبعد ما مس الحزام الطبيين يا أبا حسن ، فانصرف علي إلى بيت المال ، وأعطى الناس فبقى طلحة وحده ، وسر بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له : والله ما جئت تائبًا ولكن مغلوبًا فالله حسيبك يا طلحة ، وهذا يؤكد أن طلحة رضى الله عنه له أطماع في الخلافة مع الزبير بن العوام تحت مظلة طلب حق الخلافة في آل أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وهذا ما سيحدث) .

عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وموقعة الجمل :

بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه في ذى الحجة لعام ٣٥ هـ الموافق يونيو عام ٦٥٦ م تكونت فكرة الأحزاب السياسية العاملة للمعارضة لأن الهدف من حرب هذه الأحزاب الصراع على الحكم وليس مبدأ الشورى الذى انهار في دومة الجندل في شوال لعام ٣٧هـ الموافق مارس عام ٦٥٨م وهذه الأحزاب السياسية أخذت تعانى منها الدولة الأموية والدولة العباسية حتى ما انهارت الفكرة منها في عهد هارون الرشيد وبالتحديد في١٧٨هـ الموافق عام٧٩٤م (ثورة الوليد بن طريف) من الخوارج في الجزيرة بالعراق والتى انتهت بقتله وكان هذا آخر نشاط لهذه الأحزاب ؛ لأن الخوارج أسسوا لهم دولة في عمان، والشيعة في المغرب أما عن الحزب الزبيري والذى نتحدث عنه هذا انتهى في الدولة الأموية ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، لأنه حلت محلهم حركات فكرية وليست حركات عسكرية كانت تفتت في عضد الدولة الإسلامية مثل المعتزلة والمرجئة والجبرية التى ظهرت في العصر الأموي ووجدت لها البيئة الصالحة في العصر العباسي على يد المأمون مما نشط حركة الفلسفة الإسلامية وزاد أكثر حركة الزندقة التى ظهرت إبان المهدى والخرمية التى ظهرت مع الحرب الأهلية التى دارت رحاها مع أوائل القرن التاسع الميلادى وكل هذه الحركات أذكوها الفرس الذين كانوا ينفسون المكانة على العرب بعد قيام العباسيين فتحول ذلك الصراع الحزبي إلى صراع عرقي زاد مع دخول الأتراك في عهد المعتصم إلى السلطة مما غير ملامح هذا الوضع وجعله صراعًا عرقيًا مع حلول الستينات من القرن التاسع الميلادى وهو بداية العصر العباسي الثاني ، فلم يعد الحديث عن خوارج وشيعة وزبيرية بعد ذلك .

والآن نعرض من خلال حديث المصادر الإسلامية عما حدث مع تولي الخلافة علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا عليًا يبايعونه ، فأبى وقال : أكون وزيرًا لكم خير من أن أكون أميرًا ومن اخترتم رضيته ، فألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك ، فخرج إلى المسجد وبايعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما ويقال إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكة ، ثم بايعه الناس (وكان هذا منهما نوع من الحيلة لإحراج موقفه أمام معاوية بن أبي سفيان لأنهما بعد ذلك طلبا الخروج من المدينة المنورة إلى البصرة حيث كان لهم أتباع منتظرين للانقلاب على الإمام علي كرم الله وجهه) وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعا ، ثم بعثوا إلى سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر فامتنعا ، فبقوا حيارى ورأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام

يوقع في الخلاف والفساد ، فجمعوا أهل المدينة وقالوا : أنتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة فاعقدوا الإمامة ونحن لكم تبع وقد أجلناكم يومين وإن لم تفعلوا قتلنا فلانًا وفلانًا وغيرهما يشيرون إلى الأكابر .

فجاء الناس إلى علي فاعتذر وامتنع ، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام ، فوعدهم إلى الغد ، ثم جاؤوه من الغد وجاء حكيم بن جبلة في البصريين ، فأحضر الزبير كرهًا ، وجاء الأشتر في الكوفيين فأحضر طلحة كذلك وبايعوا لعلي ، وخرج إلى المسجد وقال : هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أردتم وقد افترقنا الأمس وأنا كاره فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، فقالوا : نحن على ما افترقنا عليه بالأمس ، فقال لهم : اللهم اشهد ! ثم جاؤوا بقوم ممن تخلف قالوا نبايع على إقامة كتاب الله ، ثم بايع العامة ، وخطب علي وذكر الناس وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة ورجع إلى بيته ، فجاءه طلحة والزبير وقالا : قد اشترطنا إقامة الحدود فأقمها على قتلة هذا الرجل فقال : لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وننظر الأمور فتؤخذ الحقوق ، فافترقوا عنه (وهذه حيلة منهم كما ذكرنا أن يوقعانه في حرج قتل عثمان بن عفان رضوان الله عليه) وأكثر بعضهم المقالة في قتلة عثمان وباستناده إلى أربعة في رأيه ، وبلغه ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجتهم إليهم ونظره لهم، ثم هرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام فاشتد على علي منع قريش من الخروج ، ثم نادى في اليوم الثالث برجوع الأعراب إلى بلادهم، فأبوا وتآمرت معهم السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) وجاءه طلحة والزبير فقالا : دعنا نأتي البصرة والكوفة فنستنفر الناس فأمهلهما . وجاء المغيرة بن شعبة فأشار عليه باستبقاء العمال حتى يستقر الأمر ويستبدلوا بمن شاء فأمهله ، ورجع من الغد فأشار بمعالجة الاستبدال ، وجاءه ابن عباس فأخبره بخبر المغيرة ، فقال : نصحك أمس وغشك اليوم، قال : فما الرأى ؟ قال : كان الرأى أن تخرج عند قتل الرجال إلى مكة وأما اليوم فإن بني أمية يشبهون على الناس بأن يلجموك طرفًا من هذا الأمر ويطلبون ما طلب أهل المدينة في قتلة عثمان فلا يقدرون عليهم والأمر أن تقر معاوية . فقال علي رضى الله عنه : والله لا أعطيه إلا السيف . فقال له ابن عباس : أنت رجل شجاع لست صاحب رأى في الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول الحرب خدعة. قال: بلى ! فقال ابن عباس : أما والله إن أطعتني لأتركنهم ينظرون في دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها من غير نقصان عليك ولا إثم لك ، فقال : يا ابن عباس لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء . فقال ابن عباس : أطعني والحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، وإن نهضت

مع هؤلاء القوم يحملك الناس دم عثمان غدًا ، فأبى علي وقال : أشر علي وإذا خالفتك أطعني . قال : أيسر ما لك عندى الطاعة . قال : فسر إلى الشام فقد وليتكها . قال : إذًا يقتلني معاوية بعثمان أو يحبسنى فيتحكم علي لقرابتي منك ولكن اكتب إليه وعده فأبى ، وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغضب ولحق بمكة ، (واستطاع طلحة والزبير حوارى الرسول ﷺ أن يؤلبوا الناس عليه للأسف الشديد في موضوع قتل عثمان رضى الله عنه ويقول الأستاذ مصطفى عاشور في كتاب (علي المفترى عليه ص ٤٩) عن طلحة وموقفه العجيب من المطالبة بمقتل عثمان بن عفان وهم لم يدافعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي عنه وكان كثيرًا ما يقول سيدنا عثمان رضى الله عنه ويلي من طلحة، أعطيته كذا وكذا ذهبًا وهو يروم دمى . . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه ، وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان رضى الله عنه حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ويقود بعض الثائرين إلى الدار المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان وإن كان هذا لا يستند إلى القوة فإنه يؤكد سوء ظن الناس بصداقة طلحة بعثمان) .

ويروى نفس المرجع أن علي بن أبى طالب كرم الله وجهه رجع إلى سياسة الشيخين رضى الله عنهما في تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات مخافة عليهم من غوايتها وإبعادًا لهم من دسائس التشيع والعصبيات فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن قال لهما : بل تبقيان معى لآنس بكما وسأل ابن عباس: ما ترى ؟ فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة فقال علي : ويحك إن العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضرا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحدًا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى، فلما رجع وجاءت أخبار الآخرين دعا علي طلحة والزبير وقال قد وقع ما كنت أحذركم ، ثم استأذنه طلحة والزبير في العمرة ولحقا بمكة ، ثم اعتزم علي الخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة إلى قتالهم وقال : انطلقوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذى عليكم . وأمر الناس بالتجهز إلى الشام ودفع اللواء لابنه محمد بن الحنفية ، وولى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمرو بن سلمة ميسرته، ويقال به عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ، وولى أبا ليلى بن عمرو ابن الجراح ابن أخى أبي عبيدة مقدمته ولم يول أحدًا ممن خرج على عثمان واستخلف على المدينة تمام بن العباس ، وعلى مكة قثم بن العباس (إخوة عبد الله بن العباس) وكتب إلى الصحابي الجليل قيس بن سعد بن عبادة بمصر وعثمان

ابن حنيف بالبصرة وأبى موسى الأشعري بالكوفة أن يندبوا الناس إلى الشام، وبينما هو على التجهز للشام إذ أتاه الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وأنهم على الخلاف فانتقض عن الشام ولما جاء خبر مكة إلى علي قام في الناس وقال ألا إن طلحة والزبير وعائشة قد تمالؤوا على نقض إمارتى ودعوا الناس إلى الإصلاح وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا وأقتصد نحوهم ، وندب أهل المدينة فتثاقلوا، وبعث كميلاً النخعى فجاءه بعبد الله بن عمر فقال: انهض معى فقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون قال : فأعطنى كفيلاً بأنك لا تخرج، قال : ولا هذه، فتركه ورجع إلى المدينة، وخرج إلى مكة وقد أخبرت أم كلثوم أباها الإمام علي كرم الله وجهه بأن عبد الله ابن عمر بن الخطاب سمع من أهل المدينة تثاقلهم وأنه على طاعة علي وخرج معتمرًا وجاء الخبر من الغداة إلى علي بأنه خرج إلى الشام فبعث في أثره على كل طريق وماج أهل المدينة وركبت أم كلثوم إلى أبيها وهو في السوق يبعث الرجال ويظاهر في طلبه فحدثته فانصرف عن ذلك ووثق به فيما قالته ورجع إلى أهل المدينة فخاطبهم وحرضهم فرجعوا إلى إجابته وأول من أجابه أبو الهيثم بن التيهان البدري وخزيمة بن ثابت وليس بذى الشهادتين ولما رأى زياد ابن حنظلة تثاقل الناس عن علي انتدب إليه وقال : من تثاقل عنك فإنا نخف معك ونقاتل دونك .

كان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور كما قدمناه ، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيت في طريقها رجلاً من بنى ليث أخوالها فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي ، فقالت : قتل عثمان والله ظلمًا ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل : ولم أنت كنت تقولين ما قلت ؟ فقالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وانصرفت إلى مكة ، وجاءها الناس فقالت : إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرًا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ولو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبًا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه. فقال عبد الله بن عامر الحضرمى وكان عامل مكة لعثمان : أنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية وكانوا هربوا إلى مكة بعد قتل عثمان ، منهم : سعيد بن العاص والوليد بن عقبة ، وقدم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منية من اليمن بستمائة بعير وستمائة ألف فأناخ بالأبطح ، ثم قدم

طلحة والزبير من المدينة فقالت لهما عائشة : ما وراءكما ؟ قالا : تحملنا هرابًا من المدينة من غوغاء وأعراب غلبوا على خيارهم فلم يمنعوا أنفسهم ولا يعرفون حقًا ولا ينكرون باطلاً ، فقالت : انهضوا بنا إليهم ، وقال آخرون : نأتي الشام ، فقال ابن عامر : إن معاوية كفاكم الشام فأتوا البصرة فلى بها صنائع ولهم في طلحة هوى ، فنكروا عليه مجيئه من البصرة واستقام رأيهم على رأيه وقالوا : إن الذين معنا لا يطيقون من بالمدينة ويحتجون ببيعة علي وإذا أتينا البصرة أنهضناهم كما أنهضنا أهل مكة وجاهدنا، فاتفقوا ودعوا عبد الله بن عمر إلى النهوض فأبى وقال : أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون ، وكانت أمهات المؤمنين معها على قصد المدينة ، فلما نهضت إلى البصرة قعدوا عنها وأجابتها حفصة فمنعها أخوها عبد الله ، وجهزهم ابن عامر بما معه من المال ويعلى بن منية بما معه من المال والظهر ، ونادوا في الناس بالحملان فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكة ومن أهل المدينة وتلاحق بهم الناس فكانوا ثلاثة آلاف، وبعثت أم الفضل وأم عبد الله بن عباس بالخبر استأجرت على كتابها من أبلغه عليًا ونهضت عائشة ومن معها ، وجاء مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير فقال : على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ، فقال ابن الزبير على أبي ، وقال ابن طلحة على أبي ، فأرسلت عائشة إلى مروان تقول له أتريد أن تفرق أمرنا ليصل بالناس ابن أختى تعنى عبد الله بن الزبير (من هنا نرى أنهم تكاتفوا على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مع وجوه بني أمية لكى لا يصل الأمر إلى آل البيت) ويؤكد الدكتور أحمد شلبي أن ابن الزبير هو المحرض لخالته السيدة عائشة رضى الله عنها رغبة أن يزيل من طريقه علي بن أبى طالب الذى كان دون مراء يفضل عبد الله بن الزبير في كل شيء ، ويضيف بقوله وكانت معركة غاشمة ظالمة سقط فيها الآلاف رجاء تحقيق هذا الطموح دون جدوى ومن الواضح أن هذا الرجل لم يواجه المشكلة بصراحة ، بل استتر خلف خالته ودفعها إلى هذا الأتون واستتر كذلك خلف أبيه وخلف خاله طلحة بن عبيد الله ، والإنسان يحار في تحليل هذه الحادثة العجيبة ، ويدهش كيف جاز لرجل أن يدفع خالته لمثل هذا الصراع ، وليست لنا خالات مثل عائشة رضى الله عنها ومع هذا لا نرى من يدفع خالته إلى مثل هذا اللظى ليحقق لنفسه أملاً .

وودع أمهات المؤمنين عائشة من ذات عرق باكيات ، وأشار سعيد بن العاص على مروان بن الحكم وأصحابه بإدراك ثأرهم من عائشة وطلحة والزبير ، فقالوا نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعًا ، ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال : لمن تعجلان الأمر إن ظفرتما ؟ قالا : لأحدنا الذى تختاره الناس ، فقال : بل اجعلاه لولد

عثمان لأنكم خرجتم تطلبون دمه فقالا : وكيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ قال : فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف فرجع ، ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد (من بنى عبد شمس) ووافقه المغيرة بن شعبة ومن معه من ثقيف فرجعوا ، ومضى القوم ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان (وهذا يؤكد على اختلاف الأهداف فطلحة رفض والزبير معه على أن يتولى أحد سواهما وهذا بصريح العبارة أنهما لهما حزب سياسي مستقل) وأركب يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بمائة دينار وقيل بثمانين ، وقيل بل كان لرجل من عرينة (اسم لقبيلة) عرض لهم بالطريق على جمل فاستبدلوا به جمل عائشة على أن حمله بألف فزادوه أربعمائة درهم ، وسألوه عن دلالة الطريق فدلهم ومر بهم على الماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسأله عن الماء فعرفه باسمه .

فقالت عائشة: ردونى سمعت رسول الله ﷺ يقول عنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وأقامت بهم يومًا وليلة إلى أن قيل النجاء النجاء قد أدرككم علي (يقول المؤرخون جميعهم أن عبد الله بن الزبير ليؤكد على عزم خالته التى فت عضدها بعد خروج بني أمية عنهم وهم عزوة أكبر من بني أسد وكذلك عندما سمعت نباح الكلاب وكان هذا حديث رسول الله ﷺ فخشيت فقال لها أن ذلك المكان ليس الحوأب وأن من قال ذلك فقد كذب فلما تمسكت السيدة عائشة بموقفها جاءها عبد الله من طريق آخر وهو عبارة قيل النجاء النجاء قد أدرككم علي) فارتحلوا نحو البصرة فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمى وأشار بأن يتقدم عبد الله بن عامر إليهم فأرسلته عائشة وكتبت معه إلى رجال من البصرة، إلى الأحنف بن قيس وسمرة وأمثالهم وأقامت بالحفين تنتظر الجواب ، ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين وكان رجلاً عامة ، وأبا الأسود الدؤلي وكان رجلاً خاصة ، وقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها، فجاآها بالحفين وقالا: إن أميرنا بعثنا نسألك عن مسيرك ؟ فقالت : إن الغوغاء ونزاع والقبائل فعلوا ما فعلوا فخرجت في المسلمين أعلمهم بذلك وبالذى فيه الناس وراءنا وما ينبغى من إصلاح هذا الأمر . . ثم قرأت ﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾ الآية ، ثم عدلا عنها إلى طلحة فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلب بدم عثمان. فقالا: ألم تبايع عليًا ؟ قال : بلى والسيف على رأسي وما أستقبل على البيعة إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان ، وقال لهما الزبير مثل ذلك ، ورجعا إلى عثمان بن حنيف فاسترجع وقال : دارت رحى الإسلام ورب الكعبة ، ثم قال أشيروا علي ، فقال عمران : اعتزل . قال : بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين ، فجاءه هشام بن

عامر فأشار عليه بالمسالمة والمسامحة حتى يأتي أمر علي ، فأبى ونادى في الناس فلبس السلاح ثم دس من يتكلم في الجمع ليرى ما عندهم فقال رجل : إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فبلدهم يأمن فيه الطير وإن جاؤوا لدم عثمان فما نحن بقتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا . فقال الأسود بن سريع السعدى : إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلته منا ومن غيرنا ، فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصرًا وكسره ذلك كله . وانتهت عائشة ومن معها إلى المربد ، وخرج إليها عثمان فيمن معه وحضر أهل البصرة فتكلم طلحة من الميمنة : فحمد الله وذكر عثمان وفضله ودعا إلى الطلب بدمه وحث عليه ، وكذلك الزبير فصدقهما أهل الميمنة ، وقال أصحاب عثمان من الميسرة : بايعتم عليًا ثم جئتم تقولون ثم تكلمت عائشة وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان ويأتوننا بالمدينة فنجدهم فجرة ونجده برًا تقيًا وهم يحاولون غير ما يظهرون، ثم كثروا واقتحموا عليه داره وقتلوه واستحلوا المحرمات بلا ترة ولا عذر ، ألا وإن مما ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم** ﴾ الآية .

فاختلف أصحاب عثمان عليه ومال بعضهم إلى عائشة ، ثم افترق الناس وتحاصبوا وانحدرت عائشة إلى المربد ، وجاءها جارية بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك وإنه من رأى قتالك يرى قتلك ، فإن كنت أتيتينا طائعة فارجعى إلى منزلك وإن كنت مكرهة فاستعينى بالله وبالناس على الرجوع .

وأقبل حكيم بن جبلة وهو على الخيل فأنشب القتال ، وأشرع أصحاب عائشة رماحهم فاقتتلوا على فم السكة، وحجر الليل بينهم وباتوا يتأهبون وعاداهم حكيم بن جبلة فاعترضه رجل من عبد القيس فقتله حكيم ، ثم قتل امرأة أخرى واقتتلوا إلى أن زال النهار وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف ولما عضتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتوادعوا على أن يبعثوا إلى المدينة فإن كان طلحة والزبير أكرها سلم لهم عثمان الأمر وإلا رجعا عنه ، وسار كعب بن سوار القاضي إلى أهل المدينة يسألهم عن ذلك فجاءهم يوم جمعة وسألهم فلم يجبه إلا أسامة بن زيد فإنه قال : بايعا مكرهين ، فضربه الناس حتى كاد يقتل ، ثم خلصه صهيب وأبو أيوب ومحمد بن مسلمة إلى منزله، ورجع كعب وبلغ الخبر بذلك إلى علي، فكتب إلى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير

ذلك نظرنا ونظروا ولما جاء كعب بقول أهل المدينة بعث طلحة والزبير إلى عثمان ليجتمع بهما ، فامتنع واحتج بالكتاب وقال : هذا غير ما كنا فيه ، فجمع طلحة والزبير الناس وجاءا إلى المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة ظلماء شاتية ، وتقدم عبد الرحمن بن عتاب في الوحل فوضع السلاح في الجائية من الزط والسابحة وهم أربعون رجلاً فقتلوهم وقتلوا عن آخرهم ، واقتحموا على عثمان بن حنيف فأخرجوه إلى طلحة والزبير وقد نتفوا شعر وجهه كله، وبعثا عائشة بالخبر فقالت: خلوا سبيله ، وقيل : أمرت بإخراجه وضربه ، وكان الذى تولى إخراجه وضربه مجاشع بن مسعود ، وقيل : إن الاتفاق إنما وقع بينهم على أن يكتبوا إلى علي فكتبوا إليه وأقام عثمان يصلى فاستقبلوه ووثبوا عليه فظفروا به وأرادوا قتله ، ثم استبقوه من أجل الأنصار وضربوه وحبسوه .

ثم خطب طلحة والزبير وقالا : يا أهل البصرة توبة بحوبة إنما أردنا أن نستعتب عثمان بن عفان فغلب السفهاء فقتلوه ، فقالوا لطلحة : قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! قال الزبير : أما أنا فلم أكاتبكم ، وأخذ يرمى عليًا بقتل عثمان فقال رجل من عبد القيس : يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب داعى الإسلام وكان لكم بذلك الفضل ، ثم استخلفتم مرارًا ولم تشاورونا ، وقتلتم كذلك ، ثم بايعتم عليًا وجئتم تستعدوننا عليه فماذا الذى نقمتم عليه ؟ فهموا بقتله ومنعته عشيرته ، ثم وثبوا من الغد على قتل عثمان ومن معه فقتلوا منهم سبعين ، وبلغ حكيم بن جبلة ما فعل بعثمان بن حنيف فجاء لنصره في جماعة من عبد القيس ، فوجد عبد الله بن الزبير فقال له : ما شأنك ؟ قال : تخلوا عن عثمان وتقيمون على ما كنتم حتى يقدم علي ولقد استحللتم الدم الحرام تزعمون الطلب بثأر عثمان وهم لم يقتلوه ، ثم ناجزهم الحرب في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين (أكتوبر عام ٦٥٦م) وأقام حكيم أربعة قواد فكان هو بحيال طلحة ، وذريح بحيال الزبير ، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب ، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وتزاحفوا واستحر القتل فيهم حتى قتل كثير منهم وقتل حكيم وذريح ، وأفلت حرقوص في فل من أصحابه إلى قومهم بني سعد وتتبعوهم بالقتل وطالبوا بنى سعد بحرقوص وكانوا عثمانية ، فاعتزلوا وغضبت عبد القيس كلهم والكثير من بكر بن وائل ، وأمر طلحة والزبير بالعطاء في أهل الطاعة لهما ، وقصدت عبد القيس وبكر بيت المال فقاتلوهم ومنعوهم ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بالخبر وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي وأن يقدموا بدم عثمان ، وكتبت بمثل ذلك إلى اليمامة والمدينة .

ولنرجع إلى خبر علي وقد كان لما بلغه خبر طلحة والزبير وعائشة ومسيرهم

إلى البصرة دعا أهل المدينة للنصرة وخطبهم ، فتثاقلوا أولاً وأجابه زياد بن حنظلة وأبو الهيثم وخزيمة بن ثابت وليس بذى الشهادتين وأبو قتادة في آخرين ، وبعثت أم سلمة معه ابن عمها وخرج يسابق طلحة والزبير إلى البصرة ليردهما واستخلف على المدينة تمام ابن عباس وقيل: سهل بن حنيف ، وعلى مكة قثم بن عباس ، وسار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخففين في تسعمائة، ولقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال : يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا، فبدر الناس إليه ، فقال : دعوه فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ وسار فانتهى إلى الربذة ، وجاء خبر سبقهم إلى البصرة فأقام يأتمر بما يفعل ولحقه ابنه الحسن وعذله في خروجه وما كان من عصيانه إياه ، فقال : ما الذى عصياك فيه حين أمرتنى ؟ قال : أمرتك أن تخرج عند حصار عثمان من المدينة ولا تحضر لقتله، ثم عند قتله ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة الأمصار، ثم عند خروج هؤلاء أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فقال: أما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان وأما البيعة فخفنا ضياع الأمر والحل والعقد لأهل المدينة لا للعرب ولا للأمصار ولقد مات رسول الله ﷺ وأنا أحق بالأمر بعده فبايع الناس غيرى واتبعتهم في أبى بكر وعمر وعثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرهين فأنا أقاتل من خالف بمن أطاع إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين وأما القعود عن طلحة والزبير فإذا لم أنظر فيما يلزمنى من هذا الأمر فمن ينظر فيه ؟

ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب يستنفران الناس ، وأقام بالربذة يحرض الناس وأرسل إلى المدينة في أداته وسلاحه وقال له بعض أصحابه : عرفنا بقصدك من القوم ؟ قال : الإصلاح إن قبلوه وإلا ننظرهم وإن بادرونا امتنعنا . ثم جاءه جماعة من طيء نافرين معه فقبلهم وأثنى عليهم ، ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، ولما انتهى إلى فيد (مكان بعد الربذة) أتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه ، فقال : الزموا قراركم ففى المهاجرين كفاية، ولقيه هنالك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان فسأله عن أبى موسى، فقال: إن أردت الصلح فهو صاحبه وإن أردت القتال فليس بصاحبه فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا ثم انتهى إلى الثعلبية والأساد (مكانان بجنوب العراق) فبلغه ما لقى عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة ثم جاءه بذى قار (من المواضع الجنوبية بالعراق) عثمان بن حنيف وأراه ما بوجهه فقال : أصبت أجرًا وخيرًا إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب ثم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعونى ومنهم طلحة والزبير ثم نكثا وألبا علي ، ومن العجب

انقيادهما لأبى بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي ! والله إنهما ليعلمان أني لست دونهم ، ثم أخذ في الدعاء عليهما وابن وائل هنالك يعرضون عليه النفير فأجابهم مثل طيء وأسد، وبلغه خروج عبد القيس على طلحة والزبير فأثنى عليهم . وأما محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فبلغا إلى الكوفة ودفعا إلى أبى موسى كتاب علي وقاما في الناس بأمره فلم يجبهما أحد وشاوروا أبا موسى في الخروج إلى علي فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة فقعدوا كلهم وغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبى موسى ، فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق علي وإن كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ، فرجعا إلى علي بالخبر وهو بذى قار ، فرجع علي باللائمة على الأشتر ، وقال : أنت صاحبنا في أبى موسى فاذهب أنت وابن العباس وأصلح ما أفسدت ، فقدما على أبى موسى وكلما استعانا عليه بالناس لم يجب إلى شيء ولم ير إلا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس، فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي فأرسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت، فانطلقا حتى دخلا المسجد ، وخرج أبو موسى فلقى الحسن بن علي فضمه إليه وقال لعمار : يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا وأحللت نفسك مع الفجار ؟ فقال : لم أفعل ، فأقبل الحسن على أبى موسى فقال : لم تثبط الناس عنا وما أردنا إلا الإصلاح ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء ، قال : صدقت بأبى أنت وأمى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى ، والماشي حير من الراكب والمسلمون إخوان ودماؤهم وأموالهم حرام » فغضب عمار وسبه فسبه آخر وتثاور الناس، ثم كفهم أبو موسى، وجاء زيد بن صوحان بكتاب عائشة إليه وكتابها إلى أهل الكوفة فقرأهما على الناس في سبيل الإنكار عليها فسبه شبث بن ربعي، وتهاوى الناس وأبو موسى يكفهم ويأمرهم بلزوم البيوت حتى تنجلي الفتنة ، ويقول: أطيعونى وخلوا قريشًا إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم ، حتى ينجلى الأمر ، وناداه زيد بن صوحان بإجابة علي والقيام بنصرته وتابعه القعقاع بن عمرو فقام بعده فقال : لا سبيل إلى الفوضى وهذا أمير المؤمنين مليء بما ولي وقد دعاكم فانفروا، وقال عبد خير مثل ذلك وزاد: يا أبا موسى هل تعلم أن طلحة والزبير بايعا ؟ قال : نعم . قال : فهل أحدث علي ما ينقض البيعة ؟ قال: لا أدرى. قال : لا دريت ونحن نتركك حتى تدرى . ثم قال سيحان بن صوحان مثل ما قال القعقاع ، وحرض على طاعة علي وقال : فإنه دعاكم تنظرون ما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين ، فقال عمار : وهو دعاكم إلى ذلك لتنظروا في الحق

وتقاتلوا معه عليه ، وقال الحسن : أجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول : إن كنت مظلومًا أطيعوني أو ظالمًا فخذوا منى بالحق ، والله إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول مسن غدر ، فأجاب الناس ، وحرض عدى ابن حاتم قومه وحجر بن عدي كذلك فنفر مع الحسن من الكوفة تسعة آلاف سارت منها ستة في البر وباقيهم في الماء . وأرسل علي بعد مسير الحسن وعمار الأشتر إلى الكوفة فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى والحسن وعملوا في منازعة معه ومع الناس ، فجعل الأشتر يمر بالقبائل ويدعوهم إلى القصر حتى انتهى إليه في جماعة الناس فدخله وأبو موسى بالمسجد يّخطبهم ويثبطهم والحسن يقول له اعتزل عملنا واترك منبرنا فدخل الأشتر إلى القصر وأمر بإخراج غلمان أبي موسى من القصر وجاءه أبو موسى فصاح به الأشتر : اخرج لا أم لك وأجله تلك العشية، ودخل الناس لينهبوا متاعه فمنعهم الأشتر ، ونفر الناس مع الحسن كما قلنا وكان الأمراء على أهل النفير على كنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة معقل بن يسار الرياحى، وعلى قمائل قيس سعد بن مسعود الثقفى عم المختار وعلى بكر وتغلب وعلة بن مجدوح الذهلي ، وعلى مذحج والأشعريين حجر بن هدي ، وعلى بجيلة وأنمار وخثعم والأزد مخنف بن سليم الأزدي ، ورؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند ابن عمرو والهيثم بن شاهب ، ورؤساء النفار زيد بن صوحان والأشتر وعدى بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قيس وأمثالهم ، فقدموا على علي بذى قار ، فركب إليهم ورحب بهم وقال : يا أهل الكوفة دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فهو الذى نريد وإن يلحوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤنا بالظلم ولا ندع أمرًا فيه الصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله فاجتمع الناس عنده بذى قار وعبد القيس بأسرها وهم ألوف ينتظرونه ما بينه وبين البصرة، ثم دعا القعقاع وكان من الصحابة فأرسله إلى أهل البصرة ، وقال : الق هذين الرجلين فادعهما للألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة وقال له : كيف تصنع إذا قالوا ما لا وصاة منى فيه عندك ؟ قال : نلقاهم بالذي أمرت به فإذا جاء منهم ما لي عندنا منك رأى فيه اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى إنه ينبغى ، قال : أنت لها . فخرج القعقاع فقدم البصرة وبدأ بعائشة وقال: أى أمه ما أشخصك؟ قالت : أريد الإصلاح بين الناس ، قال : ابعثي إلى طلحة والزبير تسمعى منى ومنهما ، فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما: إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت: الإصلاح وكذلك قالا، قال : فأخبراني ما هو؟ قالا: قتلة عثمان! فإن تركهم ترك للقرآن ، قال : فقد قتلتم منهم ستمائة من أهل البصرة وغضب لهم ستة آلاف

واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمعت مضر وربيعة على حربكم فأين الإصلاح ؟ قالت عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح خير ولا تعرضونا للبلاء فنتعرض له ويصرعنا وإياكم، فقالوا: قد أصبت وأحسنت فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع وأخبر عليًا فأعجبه وأشرف القوم على الصلح ، وقد كانت وفود أهل البصرة أقبلوا إلى علي قبل رجوع القعقاع وتفاوضوا مع أهل الكوفة واتفقوا جميعًا على الإصلاح ، ثم خطب علي الناس وأمرهم بالرحيل من الغد وأن لا يرحل معه أحد ممن أعان على عثمان ، فاجتمع من أهل مصر ابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر والذين رضوا بمن سار إليه مثل علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى ، وتشاوروا فيما قال علي وقالوا : هو أبصر بكتاب الله وأقرب إلى العمل به من أولئك وهو يقول ما يقول ، وإنما معه الذين أعانوا على عثمان فكيف إذا اصطلحوا واجتمعوا ورأوا قلتنا في كثرتهم ، فقال الأشتر رأيهم والله فينا واحد وأن يصطلحوا فعلى دمائنا فهلموا نثب على طلحة نلحقه بعثمان ثم يرضى منا بالسكون فقال ابن السوداء: طلحة وأصحابه نحو من خمسة آلاف وأنتم ألفان وخمسمائة فلا تجدون إلى ذلك سبيلاً، وقال علباء بن الهيثم: اعتزلوا الفريقين حتى يأتيكم من تقومون به ، فقال ابن السوداء : ود والله الناس لو انفردتم فيتخطفونكم ، فقال عدي : والله ما رضيت ولا كرهت فأما إذ وقع ما وقع ونزل الناس بهذا المنزل فإن لنا خيلاً وسلاحًا ، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أحجمتم أحجمنا ثم قال سالم بن ثعلبة وسويد بن أوفى : أبرموا أمركم ، ثم تكلم ابن السوداء فقال : يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدًا فانشبوا القتال فلا يجدون بدًا منه ويشغلهم الله عما تكرهون ، وافترقوا على ذلك. وأصبح علي راحلاً حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وساروا معه فنزل الزاوية ، وسار من الزاوية إلى البصرة ، وسار طلحة والزبير وعائشة من الفرضة والتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد منتصف جمادى الآخرة (الرابع من ديسمبر لعام ٦٥٦م) وتراسلت بكر بن وائل وعبد القيس وجاؤوا إلى علي رضى الله عنه فكانوا معه وأشار على الزبير بعض أصحابه أن يناجز القتال ، فاعتذر بما وقع بينه وبين القعقاع ، وطلب من علي رضى الله عنه أصحابه مثل ذلك فأبى وسئل ما حالنا وحالهم في القتلى ؟ فقال : أرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة ، ونهى عن قتالهم وبعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب إن كنتم على ما جاء به

القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر في الأمر ، وجاءه الأحنف بن قيس وكان معتزلاً عن القوم وقد كان بايع عليًا بالمدينة بعد قتل عثمان مرجعه من الحج ، قال الأحنف : ولم أبايعه حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وعثمان محصور وعلمت أنه مقتول فقلت لهم من أبايع بعده ؟ قالوا : عليًا فلما رجعت وقد قتل عثمان بايعت عليًا فلما جاؤوا إلى البصرة دعونى إلى قتال علي فحرت في أمري بين خذلانهم أو خلع طاعتى ، فقلت : ألم تأمرونى بمبايعته ؟ قالوا : نعم لكنه بدل وغير فقلت : لا أنقض بيعتي ولا أقاتل أمير المؤمنين ، ولكن أعتزل ، ونزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة في زهاء ستة آلاف ، فلما قدم علي جاءه وخيره بين القتال معه أو كف عشرة آلاف سيف عنه، فاختار الكف ونادى في تميم وبني سعد فأجابوه فاعتزل بهم حتى ظفر علي فرجع إليه واتبعه ، ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم ، فقال علي : لقد أعددتما سلاحًا وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذرًا ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمى ولا أحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمى قال طلحة : ألبت على عثمان ! قال علي : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة ، أما بايعتني ؟ قال : والسيف على عنقي، ثم قال للزبير: أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ قال : اللهم نعم، ولو ذكرت قبل مسيرى ما سرت ، والله لا أقاتلك أبدًا وافترقوا فقال علي لأصحابه : إن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم ، ورجع الزبير إلى عائشة وقال : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف أمرى غير موطنى هذا ! قالت : فما تريد أن تصنع ؟ قال : أدعهم وأذهب ، فقال له ابنه عبد الله : خشيت رايات ابن أبى طالب وعلمت أن حامليها فتية أنجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت فأحفظه ذلك ، وقال : حلفت ، قال : كفر عن يمينك فأعتق غلامه مكحولاً ، وقيل : إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمار بن ياسر مع علي لما ورد : « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » .

وكان أهل البصرة على ثلاث فرق مفترقين مع هؤلاء وهؤلاء وثالثة اعتزلت كالأحنف بن قيس وعمران بن حصين ، ونزلت عائشة في الأزد ورأسهم صبرة ابن شيمان ، وأشار عليه كعب بن سور بالاعتزال فأبى وكان معها قبائل كثيرة من مضر والرباب وعليهم المنجاب بن راشد ، وبنو عمرو بن تميم وعليهم أبو الجربا وبنو حنظلة وعليهم هلال بن وكيع وسليم وعليهم مجاشع بن مسعود ، وبنو عامر وغطفان وعليهم زفر بن الحرث والأزد وعليهم صبرة بن شيمان ، وبكر

وعليهم مالك بن مسمع وبنو ناجية وعليهم الخريب بن راشد وهم في نحو ثلاثين ألفًا ، وعلي في عشرين ألفًا ، والناس جميعًا متنازلون مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ، ولا يشكون في الصلح وقد ردوا حكيمًا ومالكًا إلى علي إنا على ما فرقنا عليه القعقاع ، وجاء ابن عباس إلى طلحة والزبير ومحمد بن طلحة إلى علي وتقارب أمر الصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة يتشاورون ، واتفقوا على إنشاب الحرب بين الناس فغلسوا وما يشعر بهم أحد ، وقصد مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ويمن إلى يمن فوضعوا فيهم السلاح ، وثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم ، وبعث طلحة والزبير عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى الميمنة وهم ربيعة وعبد الرحمن بن عتاب إلى الميسرة وركبا في القلب، وسألا الناس ما هذا ؟ فقالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلاً فقال طلحة والزبير : إن عليًا لا ينتهى حتى يسفك الدماء ، ثم دفعوا أولئك المقاتلين فسمع علي وأهل عسكره الصيحة، فقال : ما هذا ؟ فقيل له أظنه سقط من هنا طرقنا أو نحوه السبئية بيوتنا ليلا فرددتهم ، فوجدنا القوم على أهبة فركبونا وثار الناس وركب علي ، وبعث إلى الميمنة والميسرة صاحبها ، وقال : إن طلحة والزبير لا ينتهيان حتى تسفك الدماء ونادى في الناس كفوا ، وكان رأيهم جميعًا في تلك الفتنة أن لا يقتتلوا حتى يقيموا الحجة ولا يقتلوا مدبرًا ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلبًا .

وأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال : قد أبى القوم إلا القتال فلعل الله يصلح بك فأركبها وألبسوا هودجها الأدراع وأوقفوها بحيث تسمع الغوغاء واقتتل الناس حتى انهزم أصحاب الجمل ، وأصيب طلحة بسهم في رجله فدخل البصرة ودمه يسيل إلى أن مات وذهب الزبير إلى وادى السباع لما ذكره علي ، فمر بعسكر الأحنف واتبعه عمرو بن الجرموز وكان يسائله حتى إذا قام إلى الصلاة قتله ورجع بفرسه وسلاحه وخاتمه إلى الأحنف فقال والله ما أدرى أحسنت أم أسأت فجاء ابن جرموز إلى علي وقال للحاجب: استأذن لقاتل الزبير فقال لحاجبه: ائذن له وبشره بالنار ، ولما بلغت الهزيمة البصرة ورأوا الخيل أطافت بالجمل فرجعوا وشبت الحرب كما كانت ، وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفًا : تقدم فادعهم إليه واستقبل القوم فقتله السبئية رشقًا بالسهم ، ورموا عائشة في هودجها حتى جأرت بالاستغاثة ثم بالدعاء على قتلة عثمان ، وضج الناس بالدعاء فقال علي ما هذا قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان ! فقال : اللهم العن قتلة عثمان .

ثم أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرضتهم ،وتقدم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارتد أخوهما صعصعة ، وتزاحف الناس وتأخرت يمن الكوفة

وربيعتها ثم عادوا فقتل على راياتهم عشرة ، ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت ، وقتل تحت راية ربيعة زيد وعبد الله بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن سلمة ، واشتدت الأمور ولزقت ميمنة الكوفة بقلبهم وميسرة أهل البصرة بقلبهم ، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هؤلاء وميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء ، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها ، وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله ، وقاتل عند الجمل الأزد ثم بنو ضبة وبنو عبد مناة ، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبات إلى القلب واستحر القتل إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً أو سبعون كلهم من قريش ، فجرح عبد الله بن الزبير وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجندب بن زهير العامري وعبد الله بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش قتله الأشتر وأعانه فيه عدى بن حاتم، وقتل الأسود بن أبى البخترى وهو آخذ بالخطام وبعده عمرو بن الأشرف الأزدي في ثلاثة عشر من أهل بيته وجرح مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير سبعًا وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية ، ونادى الإمام علي كرم الله وجهه اعقروا الجمل يتفرقوا وضربه رجل فسقط فما كان صوت أشد عجيجًا منه وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف بن سليم فقتل فأخذها الصقعب أخوه فقتل ثم أخوهما عبد الله كذلك ، فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهى بيده وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن سليم فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوحان وأخذها عدة فقتلوا منهم عبد الله بن رقية ثم منقذ الله النعمان ودفعها إلى ابنه مرة فكان الفتح وهى بيده ، وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحرث بن حسان فقتل في خمسة من بنى أهله ورجال من بنى مجدوح وخمسة وثلاثين من بني ذهل .

وقيل في عقر الجمل : إن القعقاع دعا الأشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه ، وحمل القعقاع والخطام بيد زفر بن الحرث فأصيب شيوخ من بنى عامر ، وقال القعقاع لبجير بن دلحة من بنى ضبة وهو من أصحاب علي: يا بجير صح بقومك يعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين ، فضرب ساق البعير فوقع على شقه ، وأمن القعقاع من يليه واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وهو كالقنفذ بالسهام وفر من وراءه ، وأمر علي فنودي لا تتبعوا مدبرًا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ، وأمر بحمل الهودج من بين القتلى ، وأمر محمد بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة وأن ينظر هل بها جراحة فجاء يسألها ، وقيل لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبى بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد وأتاها على فقال : كيف أنت يا أمه ؟ قالت : بخير قال : يغفر الله لك ، قالت : ولك ، وجاء وجوه

الناس إليها فيهم القعقاع بن عمرو فسلم عليها ، وقالت له : وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وجاء إلى علي فقال له مثل قولها ولما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر الصديق البصرة ، فأقرها في دار عبد الله بن خلف الخزاعى على صفية زوجه بنت الحارث بن أبى طلحة من بنى عبد الدار أم طلحة الطلحات بن عبد الله (سمى بذلك لأنه أنجب خمسة أولاد سماهم طلحة) وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا ليلا إلى البصرة وأذن على في دفن القتلى فدفنوا بعد أن أطاف عليهم، ورأى كعب بن سور وعبد الرحمن بن عتاب وطلحة ابن عبيد الله وهو يقول : زعموا أنه لم إلينا الغوغاء مع أن هؤلاء فيهم ، ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم ، وجمع ما كان في العسكر من كل شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال : من عرف شيئًا فليأخذه إلا سلاحًا عليه سمة السلطان ، وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل .

ولما فرغ علي من الوقعة جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد فقال له : تربصت فقال : ما أرانى إلا قد أحسنت وبأمرك كان ما كان ، فارفق فإن طريقك بعيد وأنت إلي عند أحوج منك أمس فلا تقل لي مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحًا ثم دخل البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ، وأتاه عبد الرحمن بن أبى بكر فبايعه وعرض له في عمه زياد بأنه متربص ، فقال والله إنه لمريض وعلى مسرتك لحريص ، فقال : انهض أمامى فمضى فلما دخل عليه على اعتذر فقبل عذره واعترض بالمرض قبل عذره ، وأراده على البصرة فامتنع وقال : ولها رجل من أهلك تسكن إليه الناس وسأشير عليه ، وأشار بابن عباس فولاه ، وجعل زيادًا على الخراج وبيت المال ، وأمر ابن عباس بموافقته فيما يراه ، ثم راح علي إلى عائشة في دار ابن خلف وكان عبد الله بن خلف قتل في الوقعة فأساءت أمه وبعض النسوة عليه ، فأعرض عنهن وحرضه بعض أصحابه عليهن فقال : إن النساء ضعيفات وكنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات فكيف بهن مسلمات ، ثم بلغه أن بعض الغوغاء عرض لعائشة بالقول والإساءة ، فأمر من أحضر له بعضهم وأوجعهم ضربًا ، ثم جهزها على المدينة بما احتاجت إليه وبعثها مع أخيها محمد مع أربعين من نسوة البصرة اختارهن لمرافقتها ، وأذن للفل ممن خرج عنها أن يرجعوا معها ، ثم جاء يوم ارتحالها فودعها واستعتبت له واستعتب لها ، ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم ، وذلك غرة رجب لعام ٣٦ هـ (الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر

لعام ٦٥٦ م) فذهبت إلى مكة فقضت الحج ورجعت إلى المدينة ، ورجع بنو أمية من الفل ناجين إلى الشام ، فعتبة بن أبى سفيان وعبد الرحمن ويحيى أخوا مروان خلصوا إلى عصمة بن أبير التميمي إلى أن اندملت جراحهم ثم بعثهم إلى الشام وأما عبد الله بن عامر فخلص إلى بني حرقوص ومضى من هنالك ، وأما مروان ابن الحكم فأجاره أيضًا مالك بن مسمع وبعثه وقيل كان مع عائشة فلما ذهبت إلى مكة فارقها إلى المدينة ، وأما ابن الزبير فاختفى بدار بعض الأزد وبعث إلى عائشة يعلمها بمكانه فأرسلت أخاها محمدًا وجاء إليها به . (ويؤكد الدكتور أحمد شلبى في موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - الجزء الثانى - أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان يعرف مكانه ولم يود أن يقتله) .

ثم قسم علي جميع ما في بيت المال على من شهد معه ، وكان يزيد على ستمائة ألف فأصاب كل رجل خمسمائة ، وقال : إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطياتكم ، فخاض السبيئة في الطعن عليه بذلك وبتحريم أموالهم مع إراقة دمائهم ، ورحلوا عنه فأعجلوه عن المقام بالبصرة ، وارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمرًا إن أرادوه ، وقتل يوم الجمل عبد الرحمن أخو طلحة من الصحابة والمحرز بن حارثة العبشمي وكان عمر ولاه على أهل مكة ، ومجاشع ومخالد ابنا مسعود مع عائشة ، وعبد الله بن حكيم بن حزام وهند بن أبى هالة وهو ابن السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها حبيبة رسول الله ﷺ قتل مع الإمام علي بن أبى طالب وقيل بالبصرة وغيرهم . (ولكنى أقدم لعبد الله بن الزبير العذر أنه كان مجروحًا حيث أنه اتهمه الدكتور أحمد شلبي بأنه خذل خالته وهو لم يكن كذلك لأنه أخذ ٣٧ طعنة حتى أنه تظاهر بالموت لكي ينجو) .

المهم اعتزل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما هذه الفتنة وهذا لا يمنع أنه له حزب سياسي خاص به وله أنصار عدة ولكن توقف نشاطه طيلة عهد الإمام علي ابن أبى طالب كرم الله وجهه بعد موقعة الجمل ولكن عهد الإمام علي كرم الله وجهه كان العهد الذى كون هذه الأحزاب السياسية فأوجد الشيعة وهم أنصاره وكانوا بعد وفاته تحت قيادة الإمام الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهما والخوارج وهم الذين خرجوا عنه بعد موقعة صفين في عام ٣٧ هـ الموافق عام ٦٥٧م وهم المتمسكون بمبدأ الشورى ذلك المبدأ القديم الذى انهار مع أواخر الخمسينيات من القرن السابع الميلادى وكان يرأسهم عبد الله بن الكواء الذين استطاعوا في آخر الأمر اغتياله في عام ٤٠ هـ الموافق عام ٦٦١ م والحزب الزبيري الذى يقوده عبد الله بن الزبير بن العوام متخفيًا والذى يؤكد على ذلك شعر للسيدة عائشة رضى الله عنها ولما انتهى إلى عائشة قتل علي رضى الله عنه قالت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى   كما قر عينًا بالإياب المسافر

فمن قتله ؟ فقيل : رجل من مراد ، فقالت :

فإن يك نائبًا فلقد نعاه   غلام ليس في فيه التراب

من هنا تشكلت هذه الأحزاب المعارضة لحكم معاوية بن أبي سفيان عندما تولى الخلافة وهذا ما سنعرضه .

عبد الله بن الزبير رضى الله عنه في عهد معاوية بن أبى سفيان :

وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة في عام ٤١ هـ الموافق عام ٦٦١ م كان يخشى من سطوة تلك الأحزاب السياسية ولكن حدث في عهده اضطراب سياسي من قبل الشيعة والخوارج .

فالشيعة كانت لهم ثورة حجر بن عدي الكندي في عام ٥١ هـ الموافق عام ٦٧١ م نيابة عن الإمام الحسين عليه السلام ، أما الخوارج فكانت لهم ثورة عام ٤٢ هـ الموافق عام ٦٦٢ م ثورة المستورد بن علفة وعام ٥٨ هـ الموافق عام ٦٧٨ م على يد عروة بن أذينة ، لذلك لم يكن لعبد الله بن الزبير نشاط سياسي لأن معاوية بن أبي سفيان يضرب من حديد على أى حزب سياسي أو يخالفه ، ومن جهة معاوية لعبد الله بن الزبير كان يعمل له حساب لذلك تقرب منه فيروى المؤرخون أنه أي معاوية كان يلقى ابن الزبير فيقول مرحبًا بابن عمة رسول الله ﷺ وابن حوارى رسول الله ويأمر له بمائة ألف ، ولذلك بعد عبد الله بن الزبير رضى الله عنه عن السياسة واتجه إلى رواية الشعر وتذوقه ومما يروى له في ذلك أن معاوية أذن للناس يومًا فدخلوا عليه فاحتفل المجلس وهو على سريره فأجال البصر فيهم ثم قال : أنشدونى لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالته العرب ثم قال : يا أبا خبيب . فقال عبد الله بن الزبير : ما تريد ؟ قال : أنشد ذلك . فقال عبد الله بن الزبير : نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف ، كل بيت بمائة ألف ، قال معاوية : نعم إن ساوت ، قال : أنت بالخيار وأنت واف كاف فأنشده ابن الزبير للأفوه الأودي .

بلوت الناس قرنًا بعد قرن   فلم أر غير ختال وقال

فقال معاوية : صدق ، قال عبد الله بن الزبير :

ولم أر في الخطوب أشد وقعًا   وكيدًا من معاداة الرجال

فقال معاوية : صدق . قال عبد الله بن الزبير :

وذقت مرارة الأشياء طرًا   فما شيء أمر من السؤال

فقال معاوية : صدق . ثم قال : هيه يا أبا خبيب فقال عبد الله : إلى هنا انتهى . فدعا معاوية بثلاثين عبدًا ، على عنق كل واحد منهم بدارة وهى عشرة آلاف درهم فمروا بين يدى ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره ، وكذلك شارك في محاولة فتح القسطنطينية المعروفة في عهد معاوية بن أبي سفيان .

ولكن لم يدم هذا الوفاق فنحن نعلم حادث عام ٥٦ هـ الموافق عام ٦٧٦ م الذى أجبر معاوية الناس على بيعة ابنه يزيد فيقول صاحب كتاب حلية الأولياء : (موقف عبد الله بن الزبير منها أن معاوية أخبر أن عبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعبد الله بن الزبير خرجوا من المدينة عائذين بالكعبة من بيعة يزيد بن معاوية قال: فلما قدم معاوية مكة تلقاه عبد الله بن الزبير بالتنعيم فضاحكه معاوية وسأله عن الأموال ولم يعرض بشيء من الأمر الذى بلغه ثم لقي عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر فتفاوضا معه في أمر يزيد ثم دعا معاوية ابن الزبير فقال له: هذا صنيعك أنت استنزلت هذين الرجلين وسننت هذا الأمر وإنما أنت ثعلب ورواغ لا تخرج من جحر إلا دخلت في آخر فقال ابن الزبير : ليس بي شقاق ولكن أكره أن أبايع رجلين أيكما أطيع بعد أن أعطيكما العهود والمواثيق فإن كنت مللت الإمارة فبايع ليزيد فنحن نبايعه معك فقام معاوية حين أبوا عليه فقال : ألا إن حديث الناس ذات غور وقد كان بلغنى عن هؤلاء الرهط أحاديث وجدتها كذبًا وقد سمعوا وأطاعوا ودخلوا في صلح ما دخلت فيه الأمة ، وهذا أزم العلاقات بين الطرفين لأن عبد الله بن الزبير طموح وضاعت الفرصة منه قديمًا منذ عشرين عامًا وهذا الحادث قهر خاله عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وخالته السيدة عائشة فماتا في عام ٥٨ هـ الموافق عام ٦٧٨م، وأتت الفرصة له بعد أن رأى ثورة الخوارج الأخيرة في عام ٥٨ هـ الموافق عام ٦٧٨ م والتى انتهت بالفشل على أنها علامة أن هذه الدولة مضطربة فاستغل وفاة معاوية بن أبى سفيان في رجب عام ٦٠ هـ الموافق أبريل عام ٦٨٠م .

عبد الله بن الزبير رضى الله عنه في الفتنة الثانية :

لما مات معاوية تثاقل عبد الله بن الزبير عن طاعة يزيد بن معاوية وأظهر شتمه فبلغ ذلك يزيد فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولا وإلا أرسل إليه فقيل لابن الزبير ألا نصنع لك غلاً من فضة تلبس عليه الثوب وتبر قسمه فالصلح أجمل بك قال: لا أبر والله قسمه ثم قال : ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر ثم قال والله لضربة بسيف في عز أحب إلي من ضربة سوط في ذل ، ثم دعا إلى نفسه ، وتبدأ الأحداث بخروج سيدنا الحسين عليه السلام من حزب الشيعة على يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويذكر المؤرخون الحرب التى دارت

بينه وبين أخيه عمرو بن الزبير الذى قتل إثر هذه المعركة واستطاع منها أن ينتصر على والي الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص الأموي وهنا يجب أن نسرد ما هى أسرة عبد الله بن الزبير بن العوام كان لعبد الله إخوة أشقاء هم عروة والمنذر وعاصم وإخوة أخرى من أمهات شتى فكان له خالد وعمرو وأمهما أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص الأموية والمصعب وحمزة وأمهما من كلب وعبيدة وجعفر وأمهما زينب بنت بشر بن عبد عمرو بن مرثد الضبعية .

وبعد أن استشهد سيدنا الحسين عليه السلام في أوائل عام ٦١هـ الموافق سبتمبر عام ٦٨٠ م ، بدأ عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما في تحويل الدعوة من السر إلى الجهر ويروى الطبرى عام ٦١ هـ الموافق عام ٦٨١ م :

وكان السبب في ذلك وسبب إظهار عبد الله بن الزبير الدعاء إلى نفسه -فيما ذكر هشام ، عن أبى مخنف ، عن عبد الملك بن نوفل - قال : حدثني أبي ، قال : لما قتل الحسين عليه السلام قام ابن الزبير في أهل مكة وعظم مقتله ، وعاب على الكوفة خاصة ، ولام أهل العراق عامة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ : إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلاً ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق ، وإنهم دعوا حسينًا لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلمًا فيمضي فيك حكمه ، وإما أن تحارب ، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدًا أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينًا ، وأخزى قاتل حسين! لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حم نازل ، وإذا أراد الله أمرًا لن يدفع ، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدًا! لا ولا نراهم لذلك أهلاً أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيرًا في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد - يعرض بيزيد - فسوف يلقون غيًا .

فثار إليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرًا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا - وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق - فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة ، أعطى

الله عهداً ليوثقنه في سلسلة ، فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة، فأخبر خبر ما قدم له وبالسلسلة التى معه، فقال مروان:

خذها فليست للعزيز بخطة وفيها مقال لامرىء متضعف

ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير ، فأتى ابن الزبير فأخبره بمر البريد على مروان ، وتمثل مروان بهذا البيت ، فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعف ، ورد ذلك البريد رقيقًا .

وعلا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أما إذ هلك الحسين عليه السلام فليس أحد ينازع ابن الزبير ، ثم إن الوليد بن عتبة وناسًا معه من بني أمية قالوا ليزيد بن معاوية : لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك ، فسرح الوليد بن عتبة على الحجاز أميرًا ، وعزل عمرًا لهلال ذي الحجة سنة إحدى وستين هجرية (في الثانى عشر من أغسطس لعام ٦٨١ م) وولي فأقام الحجة سنة إحدى وستين بالناس ، وأعاد ابن ربيعة العامري على قضائه ، وكان هذا التواني الذى وصل له يزيد مع عبد الله سببه هو انتقاد الناس لمقتل سيدنا الحسين عليه السلام وهذا ما يهدفه عبد الله بن الزبير بن العوام هو إثارة الرأى العام ضد يزيد بالمتاجرة بدم الحسين عليه السلام كما فعل من قبل ذلك بدم عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضى الله عنه .

ومن هنا نرد على الدكتور أحمد شلبي في موضوع أنه لم يكن عنده فلسفة بل توجد أنه يعمل لصالح آل أبى بكر الصديق كما أسلفنا لكنه يلعب بأناس من بني عبد مناف لأن فيهم الشوكة والعصبية ، وهذا ما سيظهر لنا في حوادث عام ٦٢ هـ الموافق عام ٦٨٢ م الذى ثار فيها الخوارج مستغلين استشهاد سيدنا الحسين عليه السلام مع أنهم أعدائه ومن أعداء أبيه لأنهم كانوا يريدون الانقسام فتحالفوا مع عبد الله بن الزبير وهذا ما يرويه الطبري حيث يقول : (وثار نجدة بن عامر الحنفى باليمامة حين قتل الحسين ، وثار ابن الزبير ، فكان الوليد يفيض من المعرف، وتفيض معه عامة الناس ، وابن الزبير واقف وأصحابه ، ونجدة واقف في أصحابه ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه ، لا يفيض واحد منهم بإفاضة صاحبه ، وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن الناس أنه سيبايعه) .

ثم إن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة ، فكتب إلى يزيد بن معاوية : إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق ، لا يتجه لأمر رشد ، ولا يرعوي لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق ، لين الكتف ، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجتمع ما تفرق ، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ، والسلام .

(وكانت هذه حيلة منه ليضعف أمر الحجاز لأن الوليد بن عتبة كان واليًا أمويًا وللأسف الشديد استجاب يزيد ولم يعرف أن عبد الله ينوى الشر للمسلمين) .

فبعث يزيد بن معاوية إلى الوليد فعزله وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان فقدم فتى غر حديث عمر لم يجرب الأمور ، ولم يحنكه السن ، ولم تضرسه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا علمه ، وبعث إلى يزيد وفدًا من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ، والمنذر بن الزبير (وهو شقيقه) ، ورجالاً كثيرًا من أشراف أهل المدينة ، فقدموا على يزيد بن معاوية ، فأكرمهم ، وأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، ثم انصرفوا من عنده ، وقدموا المدينة كلهم إلا المنذر ابن الزبير فإنه قدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة ، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم - فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبة ، وقالوا : إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس ، أن الناس أتوا عبد الله بن حنظلة الغسيل فبايعوه وولوه عليهم (وكان هذا المطلوب هو خروج الأنصار عن الأمويين لأنهم كانوا رافضين فكرة الخلافة في قريش فاضطرب الحجاز) ، ورجع المنذر من عند يزيد بن معاوية ، فقدم على عبيد الله بن زياد البصرة ، فأكرمه وأحسن ضيافته ، وكان لزياد صديقًا ، إذ سقط إليه كتاب من يزيد بن معاوية حيث بلغه أمر أصحابه بالمدينة ، أن أوثق المنذر بن الزبير واحبسه عندك حتى يأتيك فيه أمرى، فكره ذلك عبيد الله بن زياد لأنه ضيفه ، فدعاه فأخبره بالكتاب وأقرأه إياه وقال له : إنك كنت لزياد ودًا وقد أصبحت لي ضيفًا ، وقد آتيت إليك معروفًا ، فأنا أحب أن أسدي ذلك كله بإحسان ، فإذا اجتمع الناس عندى فقم فقل : ائذن لي فلأنصرف إلى بلادى ، فإذا قلت : لا بل أقم عندى فإن لك الكرامة والمواساة والأثرة ، فقل : لي ضيعة وشغل ، لا أجد من الانصراف بدًا فائذن لي ، فإنى آذن لك عند ذلك فالحق بأهلك .

فلما اجتمع الناس عند عبيد الله قام إليه فاستأذنه فقال : لا بل أقم عندى فإنى مكرمك ومواسيك ومؤثرك ، فقال له : إن لي ضيعة وشغلاً ، ولا أجد من الانصراف بدًا فائذن لي ، فأذن له، فانطلق حتى لحق بالحجاز، فأتى أهل المدينة، فكان فيمن يحرض الناس على يزيد ، وكان من قوله يومئذ : إن يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم وإنه لا يمنعني ما صنع إلي أن أخبركم خبره ، وأصدقكم عنه ، والله إنه ليشرب الخمر ، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة وعابه بمثل ما عابه

به أصحابه الذين كانوا معه وأشد ، فكان سعيد بن عمرو يحدث بالكوفة أن يزيد ابن معاوية بلغه قوله فيه فقال : اللهم إنى آثرته وأكرمته ، ففعل ما قد رأيت ، فاذكره بالكذب والقطيعة .

(ومن هنا نجح عبد الله وشقيقه المنذر بن الزبير في إثارة الناس عليه ويا لها من حيلة ماكرة أثاروا المسلمين على قتل سيدنا الحسين عليه السلام فقامت معهم الخوارج وأول مرة يتحد الخوارج مع الشيعة مع الزبيريين ضد الأمويين وها هم اليوم يلعبون نفس اللعبة مع الأنصار ضد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) ثم إن يزيد بن معاوية بعث النعمان بن بشير الأنصاري فقال له : ائت الناس وقومك فافثأهم عما يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىء الناس على خلافي ، وبها من عشيرتى من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك .

فأقبل النعمان بن بشير فأتى قومه ، ودعا الناس إليه عامة ، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، وقال لهم : إنه لا طاقة لكم بأهل الشأم ، فقال عبد الله بن مطيع العدوي : ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا ، وفساد ما أصلح الله من أمرنا ! فقال النعمان : أما والله لكأنى بك لو قد نزلت تلك التى تدعو إليها ، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ، ودارت رحا الموت بين الفريقين قد هربت على بغلتك تضرب جنبيها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار - يقتلون في سككهم ومساجدهم ، وعلى أبواب دورهم ! فعصاه الناس ، فانصرف . وكان والله كما قال . واستجاب أهل المدينة لهذه الأحداث وقاموا بالثورة في عام ٦٣ هـ الموافق عام ٦٨٣م يقول الطبري في هذا الشأن أن أهل المدينة لما بايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد بن معاوية ، وثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن المدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش فكانوا نحوًا من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصرهم الناس فيها حصارًا ضعيفًا قال : فدعت بنو أمية حبيب بن كرة ، وكان الذى بعث إليه منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان ، وكان مروان هو يدبر أمرهم فأما عثمان بن محمد بن أبى سفيان فإنما كان غلامًا حدثًا لم يكن له رأى . قال عبد الملك بن نوفل : فحدثنى حبيب بن كرة ، قال : كنت مع مروان ، فكتب معي هو وجماعة من بنى أمية كتابًا إلى يزيد بن معاوية ، فأخذ الكتاب عبد الملك ابن مروان حتى خرج معى إلى ثنية الوداع ، فدفع إلى الكتاب وقال : قد أجلتك اثنى عشرة ليلة ذاهبًا واثنى عشرة ليلة مقبلاً ، فوافنى لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان تجدنى إن شاء الله في هذه الساعة جالسًا أنتظرك ، وكان الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم، منعنا العذب ، ورمينا بالجبوب ، فيا غوثاه يا غوثاه !

قال : فأخذت الكتاب ومضيت به حتى قدمت على يزيد وهو جالس على كرسى ، واضع قدميه في ماء طست من وجع كان يجده فيهما - ويقال : كان به النقرس - فقرأه ثم قال فيما بلغنا متمثلاً :

لقد بلغوا الحلم الذى من سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

ثم قال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ؟ قال : **قلت : بلى** وأكثر قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! قال: فقلت: يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم ، فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة ، قال : فبعث إلى عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب، وأخبره الخبر ، وأمره أن يسير إليهم في الناس ، فقال له: قد كنت ضبطت لك البلاد، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن إذ صارت إنما هى دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم منى. قال فبعثنى بذلك الكتاب إلى مسلم بن عقبة المرى - وهو شيخ كبير ضعيف مريض - فدفعت إليه الكتاب ، فقرأه ، وسألنى عن الخبر فأخبرته ، فقال لي مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل! قال: قلت: بلى يكونون، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم ، وعز سلطانهم ، ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تنصر هؤلاء فإنهم الأذلاء ، أما استطاعوا أن يقاتلوا يومًا واحدًا أو شطرة أو ساعة منه ! دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم ، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم، قال: ويحك! إنه لا خير في العيش بعدهم ، فاخرج فأنبئني نبأك ، وسر بالناس ، فخرج مناديه فنادى : أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل .

(ومن هنا وقع عبد الله بن الزبير في حيص بيص لأن هنا سيصل الحال إلى فناء بنى أمية ، وهذا لن يرضى يزيد وكان يزيد سيفعل الكثير وينهى عليه لولا الموت هو الذى حجز ولله في خلقه شئون لكى تقوم الفتنة بأن يمكن عبد الله بن الزبير في الأرض) .

كتب يزيد إلى ابن مرجانة : أن اغز ابن الزبير ، فقال : لا أجمعهما للفاسق أبدًا ، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت ! رجع الحديث إلى حديث حبيب بن كرة ، قال : فأقبلت حتى أوافى عبد الملك بن مروان في ذلك المكان

في تلك الساعة أو بعيدها شيئًا قال : فوجدته جالسًا متقنعًا تحت شجرة ، فأخبرته بالذى كان ، فسر به ، فانطلقنا حتى دخلنا دار مروان على جماعة بني أمية ، فنبأتهم بالذى قدمت به ، فحمدوا الله عز وجل .

قال عبد الملك بن نوفل : حدثنى حبيب ، أنه بلغه في عشرة قال : فلم أبرح حتى رأيت يزيد بن معاوية خرج إلى الخيل يتصفحها وينظر إليها ، قال : فسمعته وهو يقول وهو متقلد سيفًا ، متنكب قوسًا عربية :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى وهبط القوم على وادي القرى
عشرون ألفًا بين كهل وفتى أجمع سكران من القوم ترى!
أم جمع يقظان نفى عنه الكرى! يا عجبًا من ملحد يا عجبا

وفصل ذلك الجيش من عند يزيد وعليهم مسلم بن عقبة ، وقال له : إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش حصين بن نمير السكوني ، وقال له : ادع القوم ثلاثًا ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثًا فما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو فاكفف عن الناس ، وانظر علي بن الحسين ، فاكفف عنه واستوص به خيرًا وأدن مجلسه ، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه ، وقد أتاني كتابه ، وعلي لا يعلم بشيء مما أوصى به يزيد بن معاوية مسلم ابن عقبة ، وقد كان علي بن الحسين لما خرج بنو أمية نحو الشام أوى إليه مروان ابن الحكم ، وامرأته عائشة بنت عثمان بن عفان ، وهى أم أبان بن مروان ، لما أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد من المدينة ، كلم مروان بن الحكم ابن عمر أن يغيب أهله عنده ، فأبى ابن عمر أن يفعل ، وكلم علي بن الحسين ، وقال : يا أبا الحسن ، إن لي رحمًا ، وحرمى تكون مع حرمك ، فقال : أفعل ، فبعث بحرمه إلى علي بن الحسين ، فخرج بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم بينبع ، وكان مروان شاكرًا لعلي بن الحسين ، مع صداقة كانت بينهما قديمة .

وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من معهم من بنى أمية فحصروهم في دار مروان ، وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا ، فأعطوهم عهد الله وميثاقه لا نبغيكم غائلة، ولا ندل لكم على عورة، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى ، وخرجت عائشة بنت عثمان بن عفان إلى الطائف ، فتمر بعلي بن حسين وهو بمال له إلى جنب المدينة قد اعتزلها كراهية أن يشهد شيئًا من أمرهم ، فقال

لها : احملي ابني عبد الله معك إلى الطائف ، فحملته إلى الطائف حتى نقضت أمور أهل المدينة . ولما قدمت بنو أمية على مسلم بن عقبة بوادي القرى دعا بعمرو ابن عثمان بن عفان أول الناس فقال له : أخبرنى خبر ما وراءك ، وأشر علي ، قال : لا أستطيع أن أخبرك ، أخذ علينا العهود والمواثيق ألا ندل على عورة ولا نظاهر عدوًا، فانتهره ثم قال: والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وايم الله لا أقيلها قرشيًا بعدك، فخرج بما لقي من عنده إلى أصحابه فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخل قبلي لعله يجتزىء بك عنى ، فدخل عليه عبد الملك ، فقال : هات ما عندك ، أخبرني خبر الناس، وكيف ترى ؟ فقال له: نعم أرى أن تسير بمن معك، فتنكب هذا الطريق إلى المدينة حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها نزلت، فاستظل الناس في ظله وأكلوا من صقره حتى إذا كان الليل أذكيت الحرس الليل كله عقبًا بين أهل العسكر حتى إذا أصبحت صليت بالناس الغداة ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار ثم أدرت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقًا ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم وطلعت الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك ، فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ويصيبهم أذاها ويرون ما دمتم مشرقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم ، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغربين ، ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم ، فإن الله ناصرك ، إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة، فقال له مسلم : لله أبوك ! أى امرىء ولد إذ ولدك ! لقد رأى بك خلفًا ثم إن مروان دخل عليه فقال له : إيه ! قال : أليس قد دخل عليك عبد الملك! قال : بلى ، وأى رجل عبد الملك ! قلما كلمت من رجال قريش رجلاً به شبيهًا، فقال له مروان : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني ، قال : أجل ، ثم ارتحل من مكانه ذلك ، وارتحل الناس معه حتى نزل المنزل الذى أمره به عبد الملك ، فصنع فيه ما أمره به، ثم مضى في الحرة حتى نزلها، فأتاهم من قبل المشرق، ثم دعاهم مسلم بن عقبة ، يا أهل المدينة ، إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإنى أكره هراقة دمائكم ، وإنى أؤجلكم ثلاثًا ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم، وسرت إلى هذا الملحد . ولما مضت الأيام الثلاثة قال: يا أهل المدينة، قد مضت الأيام الثلاثة، فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نحارب، فقال لهم: لا تفعلوا ، بل ادخلوا في الطاعة ، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذى قد جمع إليه المراق والفساق من كل أوب، فقالوا لهم: يا أعداء الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناهم حتى نقاتلكم ، نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام ، وتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا

حرمته! لا والله لا نفعل، وقد كان أهل المدينة اتخذوا خندقًا في جانب المدينة ونزله جمع منهم عظيم ، وكان عليهم زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن ابن عوف الزهري وكان عبد الله بن مطيع على ربع آخر في جانب المدينة وكان معقل بن سنان الأشجعى على ربع آخر في جانب المدينة وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عددًا .

وصمد مسلم بن عقبة المري بجميع من معه فأقبل من قبل الحرة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة ، ثم وجه الخيل نحو ابن الغسيل ، فحمل ابن الغسيل على الخيل في الرجال الذين معه كشف الخيل ، حتى انتهوا إلى مسلم بن عقبة ، فنهض في وجوههم بالرجال ، وصاح بهم ، فانصرفوا فقاتلوا قتالاً شديدًا ، ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى عبد الله بن حنظلة الغسيل فقاتل في نحو من عشرين فارسًا قتالاً شديدًا حسنًا ، ثم قال لعبد الله : مر من معك فارسًا فليأتني فليقف معى ، فإذا حملت فليحملوا ، فوالله لا أنتهى حتى أبلغ مسلمًا ، فإما أن أقتله ، وإما أن أقتل دونه ، فقال عبد الله بن حنظلة لعبد الله بن الضحاك من بني عبد الأشهل من الأنصار : ناد في الخيل فلتقف مع الفضل بن العباس ، فنادى فيهم فجمعهم إلى الفضل ، فلما اجتمعت الخيل إليه حمل على أهل الشام فانكشفوا فقال لأصحابه : ألا ترونهم كشفًا لئامًا احملوا أخرى جعلت فداكم ! فوالله لئن عاينت أميرهم ، لأقتلنه أو لأقتلن دونه إن صبر ساعة معقب سرور أبد، إنه بعد لصبرنا إلا النصر ثم حمل وحمل أصحابه معه ، فانفرجت خيل أهل الشام عن مسلم بن عقبة في نحو من خمسمائة راجل جثاة على الركب ، مشرعي الأسنة نحو القوم ، ومضى كما هو نحو رايته حتى يضرب رأس صاحب الراية ، وإن عليه لمغفرًا ، فقد المغفر ، وفلق هامته فخر ميتًا فقال : خذها منى وأنا ابن عبد المطلب ! فظن أنه قتل مسلمًا ، فقال : قتلت طاغية القوم ورب الكعبة ، فقال مسلم : أخطأت استك الحفرة وإنما كان ذلك غلامًا له ، يقال له : رومى ، وكان شجاعًا . فأخذ مسلم رايته ونادى : يا أهل الشام ، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يعزوا به نصر إمامهم ! قبح الله قتالكم منذ اليوم ! ما أوجعه لقلبي ، وأغيظه لنفسي ! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا العطاء ، وأن تجمروا في أقاصى الثغور ، شدوا مع هذه الراية ، ترح الله وجوهكم إن لم تعتبوا ! فمشى برايته ، وشدت تلك الرجال أمام الراية ، فصرع الفضل بن عباس فقتل وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلا نحو من عشرة أذرع ، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن ابن عوف ، وقتل معه إبراهيم بن نعيم العدوى ، في رجال من أهل المدينة كثير .

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله بعده - كما حدثنى عبد الله بن منقذ - حتى دنوا منه ، وركب مسلم بن عقبة فرسًا له ، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول : يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها عددًا ، ولا أوسعها بلدًا ولم يخصصكم الله بالذى خصكم به من النصر على عدوكم ، وحسن المنزلة عند أئمتكم ، إلا بطاعتكم واستقامتكم ، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم ، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفلج ، ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذى كان فيه ، وأمر الخيل أن تقدم على ابن الغسيل وأصحابه ، فأخذت الخيل إذا أقدمت على الرجال فثاروا في وجوهها بالرماح والسيوف نفرت وابذعرت وأحجمت ، فنادى فيهم مسلم بن عقبة : يا أهل الشام، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم ، يا حصين بن نمير ، انزل في جندك ، فنزل في أهل حمص فمشى إليهم . فلما رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم نحو ابن الغسيل قام في أصحابه فقال: يا هؤلاء ، إن عدوكم قد أصابوا وجه القتال الذى كان ينبغى أن تقاتلوهم به ، وإنى قد ظننت ألا تلبثوا إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم إما لكم وإما عليكم . أما إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة، والله ما أظن ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، إن لكل امرىء منكم ميتة هو ميت بها ، والله ما من ميتة بأفضل من ميتة الشهادة ، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها ، فوالله ما كل ما أردتموها وجدتموها . ثم مشى برايته غير بعيد ، ثم وقف ، وجاء ابن نمير برايته حتى أدناها ، وأمر مسلم بن عقبة عبد الله بن عضاه الأشعرى فمشى في خمسمائة مرام حتى دنوا من ابن الغسيل وأصحابه فأخذوا ينضحونهم بالنبل ، فقال ابن الغسيل : علام تستهدفون لهم ! من أراد التعجل إلى الجنة فليلزم هذه الراية ، فقام إليه كل مستميت ، فقال : الغدو إلى ربكم ، فوالله إنى لأرجو أن تكونوا عن ساعة قريري عين ، فنهض القوم بعضهم إلى بعض فاقتتلوا أشد قتالاً رئى في ذلك الزمان ساعة من نهار ، وأخذ يقدم بنيه أمامه واحدًا واحدًا حتى قتلوا بين يديه ، وابن الغسيل يضرب بسيفه ، ويقول :

بعدًا لمن رام الفساد وطغى وجانب الحق وآيات الهدى
لا يبعد الرحمن إلا من عصى

فقتل ، وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، استقدم فقاتل حتى قتل ، وقال : ما أحب أن الديلم قتلوني مكان هؤلاء القوم ، ثم قاتل

حتى قتل وقتل معه محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، فمر عليه مروان بن الحكم وكأنه برطيل من فضة ، فقال : رحمك الله ! فرب سارية قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها . وكان مسلم بن عقبة يجلس على كرسي ويحمله وهو يقاتل ابن الغسيل يوم الحرة وهو يقول :

أحيا أباه هاشم بن حرملة يوم الهباتين ويوم اليعمله
كل الملوك عنده مغربلة ورمحه للوالدات مثكله
لا يلبث القتيل حتى يجد له يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

وخرج محمد بن سعد بن أبى وقاص يومئذ يقاتل ، فلما انهزم الناس مال عليهم يضربهم بسيفه حتى غلبته الهزيمة ، فذهب فيمن ذهب من الناس ، وأباح مسلم المدينة ثلاثًا يقتلون الناس ويأخذون الأموال ، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة ، فخرج أبو سعيد الخدرى حتى دخل في كهف في الجبل ، فبصر به رجل من أهل الشام ، فجاء حتى اقتحم عليه الغار ويروى أبو سعيد الخدرى قال: دخل إلى الشام يمشى بسيفه ، قال : فانتضيت سيفى فمشيت إليه لأرعبه لعله ينصرف عنى ، فأبى إلا الإقدام علي ، فلما رأيت أن قد جد شمت سيفى ، ثم قلت له « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » فقال لي : من أنت لله أبوك ! فقلت : أنا أبو سعيد الخدرى ، قال : صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت : نعم ، فانصرف عنى ، ولجأ أبو سعيد الخدرى بعد ذلك إلى المسجد النبوي واختبأ في المقصورة الشريفة وسمع الأذان يرفع خمس مرات للخمس فروض مدة ثلاثة أيام دون أن يرى من هو المؤذن لأن المسجد النبوي الشريف أغلق في هذه الأيام الثلاث وهذه كرامة للرسول صلوات الله وسلامه عليه وكرامة لمسجده الشريف .

ثم دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة ، وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوي ولمعقل بن سنان الأشجعى ، فأتى بهما بعد الوقعة بيوم فقال : بايعا ، فقال القرشيان : نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال : لا والله لا أقيلكم هذا أبدًا ، فقدمهما فضرب أعناقهما ، فقال له مروان : سبحان الله ! أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما ! فنخس بالقضيب في خاصرته ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة .

وجاء معقل بن سنان ، فجلس مع القوم ، فدعا بشراب ليسقى ، فقال له مسلم : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل ، قال : اسقوه فشرب حتى ارتوى ، فقال : هل قضيت ريك من شرابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والله لا تشرب بعده شرابًا شهرًا أبدًا إلا الحميم في نار جهنم ، أتذكر مقالتك لأمير المؤمنين : سرت شهرًا ، ورجعت شهرًا ، وأصبحت صفرًا ، اللهم غير - تعني يزيد ! - فقدمه فضرب عنقه . وأتى يزيد بن وهب بن زمعة ، فقال : بايع ، قال : أبايعك على سنة عمر ، قال : اقتلوه ، قال : أنا أبايع ، قال : لا والله لا أقيلك عثرتك ، فكلمه مروان بن الحكم - لصهر كان بينهما - فأمر بمروان فوجئت عنقه، ثم قال : بايعوا على أنكم خول ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقتل .

ثم إن مروان أتى بعلي بن الحسين ، وقد كان علي بن الحسين حين أخرجت بنو أمية منع ثقل مروان وامرأته وآواها ، ثم خرجت إلى الطائف ، فهى أم أبان ابنة عثمان بن عفان ، فبعث ابنه عبد الله معها ، فشكر ذلك له مروان - وأقبل علي بن الحسين يمشي بين مروان وعبد الملك يلتمس بهما عند مسلم الأمان، فجاء حتى جلس عنده بينهما ، فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك من مسلم ، فأتى له بشراب ، فشرب منه مروان شيئًا يسيرًا ، ثم ناوله عليًا ، فلما وقع في يده قال له مسلم بن عقبة الفاجر : لا تشرب من شرابنا ، فأرعدت كفه ، ولم يأمنه على نفسه ، وأمسك القدح بكفه لا يشربه ولا يضعه ، فقال : إنك إنما جئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي ، والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك ، وأخبرني أنك كاتبته ، فذلك نافعك عندي ، فإن شئت فاشرب شرابك الذى في يدك، وإن شئت دعونا بغيره ، فقال : هذه التى في كفي أريد ، قال : اشربها ، ثم قال : إلى هاهنا ، فأجلسه معه ، لما أتى بعلي بن الحسين إلى مسلم ، قال : من هذا ؟ قالوا : هذا علي بن الحسين ، قال : مرحبًا وأهلاً ، ثم أجلسه معه على السرير والطنفسة ثم قال : إن أمير المؤمنين أوصاني بك قبلاً ، وهو يقول : إن هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن وصلتك ، ثم قال لعلي : لعل أهلك فزعوا! قال : أى والله ، فأمر بدابته فأسرجت ثم حمله فرده عليها .

وذكر أن عمرو بن عثمان لم يكن فيمن خرج من بني أمية ، وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عقبة فقال: يا أهل الشام ، تعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، قال : هذا الخبيث بن الطيب هذا عمرو بن عثمان بن عفان أمير المؤمنين، هيه يا عمرو ! إذا ظهر أهل المدينة قلت : أنا رجل منكم ، وإن ظهر أهل الشام قلت : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فأمر به فنتفت لحيته ، ثم قال : يا أهل الشام ، إن أم هذا كانت تدخل الجعل في فيها ثم تقول : يا أمير المؤمنين حاجيتك ، ما في فمي ؟ وفي فمها ما ساءها وناءها ، فخلى سبيله ، وكانت أمه من دوس ، كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين (في الثاني والعشرين من يوليو لعام ٦٨٣ م) وخسرت المدينة المنورة على ساكنها

أفضل الصلاة والتسليم العديد من أبناء الصحابة والأنصار عليهم جميعهم رضوان الله .

ومن هنا ظهر عبد الله بن الزبير فهو الذى حج بالناس هذا العام لانشغال الأمويين بأهل المدينة مما جعله أن يكون الحاكم الذى أخذ يتمكن من سلطانه في مكة المكرمة وكانت موقعة الحرة للأسف الشديد من تخطيطه ومكره مع ترتيب الأحداث ، والفرصة سنحت له بهلاك الفاجر مسلم بن عقبة المري ومعه يزيد بن معاوية في عام ٦٤ هـ عام ٦٨٣ م . ولما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جنده أموالهم ثلاثًا ، شخص بمن معه من الجند متوجهًا إلى مكة ، كالذى ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدثنى عبد الملك بن نوفل ، أن مسلمًا خرج بالناس إلى مكة يريد ابن الزبير ، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي ، وذلك في آخر المحرم من سنة أربع وستين (سبتمبر عام ٦٨٣ م) فدعا حصين بن نمير السكوني فقال له : يا ابن برذعة الحمار ، أما والله لو كان هذا الأمر إلي ما وليتك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي ، وليس لأمر أمير المؤمنين مرد ، خذ عني أربعًا : أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قرشيًا من أذنك ، ثم إنه مات ، فدفن بقفا المشلل (وهو في طريقه إلى مكة المكرمة لكى يحاصر عبد الله بن الزبير وإحضاره ليزيد) ولما مات خرج حصين بن نمير بالناس على قيادة الجيش ، فقدم على ابن الزبير مكة وقد بايعه أهلها وأهل الحجاز ، وقدم عليه - يعنى ابن الزبير - كل أهل المدينة ، وقد قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت، فقال لأخيه المنذر: ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيرى وغيرك - وأخوه المنذر من شهد الحرة ثم لحق به - فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالاً شديدًا ، ثم إن رجلاً من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة - قال : والشامي على بغلة له - فخرج إليه المنذر ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خر صاحبه لها ميتًا، فجثا عبد الله ابن الزبير على ركبتيه وهو يقول: يا رب أبرها من أصلها ولا تشدها ، وهو يدعو على الذى بارز أخاه ثم إن أهل الشام شدوا عليهم شدة منكرة، وانكشف أصحابه انكشافة ، وعثرت بغلته فقال : تعسًا ! ثم نزل وصاح بأصحابه : إلي. فأقبل إليه المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فقاتلوا حتى قتلوا جميعًا وصابرهم ابن الزبير يجالدهم حتى الليل ، ثم انصرفوا عنه ، وفي الحصار الأول ، ثم إنهم أقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله (شهر أكتوبر عام ٦٨٣ م) ، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق ، وحرقوه بالنار ، وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

قال هشام : قال أبو عوانة : جعل عمرو بن حوط السدوسي يقول :

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم بين الصفا والمروة

يعنى بأم فروة المنجنيق ، وسنحت الفرصة له بوفاة وهلاك يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أثناء حصار الجيوش الأموية له في الرابع عشر من ربيع الآخر لعام ٦٤هـ الموافق الثلاثين من أكتوبر لعام ٦٨٣م عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عامًا .

ولما هلك يزيدْ بن معاوية مكث الحصين بن نمير وأهل الشام يقاتلون ابن الزبير وأصحابه بمكة أربعين يومًا، قد حصروهم حصارًا شديدًا، وضيقوا عليهم ، ثم بلغ موته ابن الزبير وأصحابه ، ولم يبلغ الحصين بن نمير وأصحابه ، بينا حصين بن نمير يقاتل ابن الزبير ، إذ جاء موت يزيد ، فصاح بهم ابن الزبير ، فقال : إن طاغيتكم قد هلك ، فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، فمن كره فليلحق بشامه ، فغدوا عليه يقاتلون . قال : فقال ابن الزبير للحصين بن نمير : ادن منى أحدثك فدنا منه فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل - والجفل : الروث - فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل (حقًا إن للبيت رب يحميه من روث البهائم ولكنْ أقدار نسير على خطاها) فكف الحصين فرسه عنهن فقال له ابن الزبير : ما لك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم ، فقال له ابن الزبير : أتتحرج من هذا وتريد أن تقتل المسلمين ! فقال له : لا أقاتلك ، فائذن لنا نطف بالبيت وننصرف عنك ففعل فانصرفوا (وإذا كان هذا الملعون يخشى على الحمام من الفرس فلماذا لا يخشى على بيت الله الحرام . . أى إيمان هذا ؟! إلى هذا الحد استبيحت حرمات الله من المسلمين؟! اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم - ولا تعليق على ذلك - وهذا ليس ببعيد عنه فهو الذى منع الماء عن الإمام الحسين بن علي رضى الله عنهما فمات ظمآنًا لعنة الله عليه) فبعث الحصين بن نمير إلى عبد الله بن الزبير ، فقال : موعد ما بيننا وبينك الليلة الأبطح ، فالتقيا ، فقال له الحصين : إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر هلم فلنبايعك ، ثم اخرج معى إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك ، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة فكان سعيد بن عمرو يقول ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام إلا تطير ، لأن مكة التى منعه الله بها ، وكان ذلك من جند مروان ، وإن عبد الله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان، فزعم بعض قريش أنه قال : أنا أهدر تلك الدماء ! أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة ، وأخذ الحصين يكلمه بكلمة سرًا ، وهو يجر جهرًا ، وأخذ يقول : لا والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبح الله من يعدك بعد هذه داهيًا قط أو أديبًا ! قد كنت أظن أن لك رأيًا ، ألا أرانى أكلمك سرًا وتكلمنى جهرًا ، وأدعوك إلى الخلافة وتعدنى القتل والهلكة !

ثم قام فخرج وصاح في الناس فأقبل فيهم نحو المدينة ، وندم ابن الزبير

على الذى صنع ، فأرسل إليه : أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لي هنالك فإنى مؤمنكم وعادل فيكم ، فقال له الحصين : أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناسًا كثيرًا من أهل البيت يطلبونها يجيبهم الناس ، فما أنا صانع ؟ فأقبل بأصحابه ومن معه نحو المدينة ، فاستقبله علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب ومعه قت وشعير وهو على راحلة له ، فسلّم على الحصين ، فلم يكد يلتفت إليه ، ومع الحصين له عتيق ، وقد فنى قته وشعيره ، فهو غرض ، وهو يسب غلامه ويقول : من أين نجد هنا لدابتنا علفًا ! فقال له علي بن الحسين : هذا علف عندنا فاعلف منه دابتك ، فأقبل على علي عند ذلك بوجهه، فأمر له بما كان عنده من علف، واجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته ثم نكس عنها فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون، وقالت لهم بنو أمية: لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخل الشام (وهذا خطئه الرئيسى في اعتقاده أن دولة بنى أمية دالت لكن هذا خطأ لأن المركز ما زال قويًا وهى دمشق) .

ودانت الحجاز بالطاعة لعبد الله بن الزبير بن العوام ومن هنا ظهر الوجه الحقيقي له فانقلب على الشيعة الذين هم أنفسهم انقسموا على أنفسهم قسم منهم دان لمحمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) وقسم دان لعلي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب (علي زين العابدين) فيقول الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء جاء نعى يزيد في ربيع الآخر سنة أربع وستين فقام ابن الزبير فدعا إلى نفسه وبايعه الناس فدعا ابن عباس وابن الحنفية إلى بيعته فامتنعا وقالا حتى يجتمع لك الناس فداراهما (اعتقلهما لم يبرح فيهما الدار) سنتين ثم إنه أغلظ لهما ودعاهما فأبيا حيث يروى المسعودي في هذا الصدد أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن العباس إني لأكتم بغضكم أهل البيت منذ أربعين سنة فنفاه إلى الطائف ومعه الإمام محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) وقبض على الحسن بن محمد ابن الحنفية وسجنه في سجن عرمرم بالطائف لولا أن احتال وتخلص منه وهرب إلى أبيه في رضوى، وانقلب على الخوارج لأنه اختلف معهم في شأن أبيه وخاله طلحة الذى رفض أن يكفره فانقسمت تلك الجماعة إلى قسمين الأزارقة والنجدات ، فالأزارقة ذهبت إلى العراق والنجدات إلى اليمامة وأخذت هذه الحركات يكون لها فكر ذى مدلول دينى ، فحدثت الفرقة بين المسلمين وكانت البداية من العراق وإيران والتى تشجع مثل هذه الحركات ، فقامت أهالى العراق بالثورة على ابن زياد في جمادى الآخرة عام ٦٤ هـ الموافق يناير عام ٦٨٤ م وولت على الكوفة عامر بن مسعود التيمى الذى نادى بشعار عبد الله بن الزبير وعمر بن عبيد الله بن معمر على البصرة في شعبان ٦٤ هـ الموافق مارس عام ٦٨٤ م ، وخرجت المناطق الشرقية من العالم الإسلامى إيران وأفغانستان عن

طاعة الأمويين وولـوا عليهم عبد الله بن خـازم السلمى ، ولكن سوء الطالع أتى لعبد الله بن الزبيـر بعد أن اجتمع أهل الشام على بيعـة مروان بن الحكم بعد وفاة معـاوية الثاني في ذى القعـدة عام ٦٤ هـ الموافق يونيو عـام ٦٨٤ م وأعلن مروان الحرب على كل من يتبع ابن الزبير في الشام .

وكان عـبد الله بن الزبير مـشغول ببناء الكعـبة التى ضربت بالمجـانيق حيث يقول الطـبري في ذلك وفي هذه السنة هدم ابن الزبيـر الكعبـة ، وكانت قـد مال حيطانـها مما رميت به من حـجارة المجـانيق، فذكـر محمـد بن عمـر الواقدي أن إبراهيم بن موسى حدثه عن عكرمة بن خـالد ، قال : هدم ابن الزبير البيت حتى سواه بالأرض ، وحـفر أساسه ، وأدخل الحـجر فيه ، وكـان الناس يطوفون من وراء الأساس ، ويصلون إلى موضعـه ، وجعل الركن الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير ، وجـعل ما كان من حلي البيت وما وجد فـيه من ثياب أو طيب عند الحجـبة في خزانة البـيت ، حتى أعـادها لما أعاد بناءه ، وكان أول من كـسا الكعبة الديباج ابن الزبيـر وكان يطيبها حتى يوجد ريحـها من طرف الحرم وكانت كسوتها قبله الأنطاع (الكتان) .

إن الخليـفة العـباسـى الثالث المهـدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) لما جرد الكعبة كان فيما نزع عنها كـسوة الزبير من ديباج مكتوب عليها لعبد الله أبى بكر أمير المؤمنين ، ويضيف ابن كثير في مـوضوع التطور التاريخي للكعبة المشرفة ما يؤكد على دقة بناء عبد الله بن الزبير وهذا التطور مشروح في تفسيره للآية رقم (١٢٥) من سورة البقرة ، ولم تزل على بناء قـريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبيـر بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معـاوية لما حاصروا ابن الزبير ، فحينئذ نقضـها (ابن الزبير) إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خـالته عائشـة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كـذلك مدة إمارته حتى قتله الحـجاج ، فردها إلى ما كانت عليه بأمـر عبد الملك بن مروان له بذلك ، كما قال مسلم عن عطاء : لما احترق البيت زمن (يزيد بن معاوية) حين غزاها أهل الشـام فكان من أمره ما كـان تركه ابن الزبير حـتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزبهم أو يجيروهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس أشيـروا علي في الكعبـة أنقضهـا ثم أبني بناءها أو أصلحِ ما وهَى منهـا؟ قال ابن عبـاس : إنه قد خرق لي رأى فيـها أرى أن تصلح ما وهَى منهـا وتدع بيتًا أسلم الناس عليه وأحجارًا أسلم الناس عليها النبي ﷺ فقال ابن الزبير : لو كان أحدهم احترق بيتـه ما رضى حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل ؟ إنى مسـتخير ربي ثلاثًا ثم عـازم على أمري ، فلمـا مضت ثـلاث أجمع رأيه على أن ينقـضهـا ، فتحامـاها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السمـاء حتى صعده رجل فألقى منه حجـارة ، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضـوه حتى بلغوا به

الأرض ، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤها .

وقال ابن الزبير : إنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : إن النبي ﷺ قال : « لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له بابًا يدخل الناس منه ، وبابًا يخرجون منه »، قال : فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسًا فنظر الناس إليه فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه ، فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاده في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذى فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه » .

في الوقت الذى ترك عبد الله بن الزبير الشام يوحده الخليفة الأموي مروان ابن الحكم وبلاد الفرس تحت قيادة رجل مستقل عنه مثل عبد الله بن خازم السلمي. وما أن دخل المحرم لعام ٦٥ هـ الموافق أغسطس عام ٦٨٤ م انضمت مصر وشمال أفريقيا للأمويين بعد أن طرد عاملها عبد الرحمن بن جحدم الفهري في الوقت الذى أراد مروان أن يشغل ابن الزبير بالعراق التى قامت فيه ثورة شيعية وهى حركة التوابين في ربيع الآخر عام ٦٥ هـ الموافق نوفمبر عام ٦٨٤ م وكانت هذه فرصة للأمويين أكدت على عدم حنكة عبد الله بن الزبير السياسية بأنه أبعد الخوارج والشيعة عنه فكانوا شوكة في ملكه الواسع الذى يضم حاليًا معظم الجزيرة العربية فيما عدا الأجنحة الشرقية والغربية وخرج الشام عن طاعته ، حيث وصل الحال بمروان وقبل وفاته في رمضان لعام ٦٥هـ الموافق مايو عام ٦٨٥م أن أوصل ولديه عبد الملك وعبد العزيز إلى كرسي الخلافة الأموية وأن يرسل جيشًا من الشام إلى المدينة المنورة لحرب عبد الله بن الزبير .

يقول عنه الطبري أرسل جيشًا شاميًا بقيادة حبيش بن دلجة إلى المدينة ، وعليهم جابر بن الأسود بن عوف ، ابن أخي عبد الرحمن بن عوف ، من قبل عبد الله بن الزبير ، فهرب جابر من حبيش ، ثم إن الحارث بن أبي ربيعة – وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة – وجه جيشًا من البصرة ، وكان عبد الله بن الزبير قد ولاه البصرة عليهم الحنيف بن السجف التميمي لحرب حبيش بن دلجة ، فلما سمع حبيش بن دلجة سار إليهم من المدينة ، وسرح عبد الله بن الزبير عباس ابن سهل بن سعد الأنصارى على المدينة ، وأمره أن يسير في طلب حبيش بن دلجة حتى يوافي الجند من أهل البصرة الذين جاءوا ينصرون ابن الزبير ، عليهم الحنيف ، وأقبل عباس في آثارهم مسرعًا حتى لحقهم بالربذة ، وقد قال أصحاب ابن دلجة له : دعهم ، لا تعجل إلى قتالهم ، فقال : لا أنزل حتى آكل من

منقذهم – يعني السويق الذى فيه القند – فجاءه سهم غرب فقتله ، وقتل معه المنذر بن قيس الجذامي ، وأبو عتاب مولى أبى سفيان بن حرب ، وكان معه يومئذ يوسف بن الحكم ، والحجاج بن يوسف ، وما نجوا إلا على جمل واحد ، وتحرز منهم نحو من خمسمائة في عمود المدينة ، فقال لهم عباس : انزلوا على حكمى ، فنزلوا على حكمه فضرب أعناقهم ، ورجع فل حبيش إلى الشام .

ولم يقم عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما بشيء سوى أنه عين مصعب أخاه على المدينة بعد أن عزل عبيدة أخاه على المدينة المنورة وحرض زفر بن الحارث الكلابي على عبد الملك بن مروان لحربه من قنسرين ووجه جل اهتمامه على الشيعة الذين استطاعوا السيطرة على الكوفة في أواخر عام ٦٥ هـ الموافق صيف عام ٦٨٥ م ، وبناء الكعبة الشريفة دون النظر في عواقب الأمور لأن الوضع تأزم في العراق بعد ظهور الأزارقة الذين ثاروا في نواحى البصرة ضد ابن الزبير بجانب الشيعة .

ويقول الطبري في هذا الصدد : أن نافع بن الأزرق اشتدت شوكته باشتغال أهل البصرة بالاختلاف الذى كان بين الأزد وربيعة وتميم بسبب مسعود بن عمرو، وكثرت جموعه ، فأقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر ، فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف في أهل البصرة فخرج إليه فأخذ يحوزه عن البصرة ويدفعه عن أرضها، حتى بلغ مكانًا من أرض الأهواز يقال له : دولاب، فتهيأ الناس بعضهم لبعض وتزاحفوا ، فجعل مسلم بن عبيس على ميمنته الحجاج بن باب الحميري ، وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميمي ، ثم الغداني ، وجعل ابن الأزرق على ميمنته عبيدة بن هلال اليشكري ، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي ، ثم التقوا فاضطربوا ، فاقتتل الناس قتالاً لم ير قتال قط أشد منه ، فقتل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة ، وقتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج ، وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج ابن باب الحميري أمير أهل البصرة ، وقتل عبد الله بن الماحوز أمير الأزارقة ، ثم إن أهل البصرة أمروا عليهم ربيعة الأجذم التميمي ، وأمرت الخوارج عليهم عبيد الله بن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضًا ، وملوا القتال ، فإنهم لمتوافقون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية لهم جامة لم تكن شهدت القتال ، فحملت على الناس من قبل عبد القيس ، فانهزم الناس ، وقاتل أمير البصرة ربيعة الأجذم ، فقتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر ، فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه ، فقاتل من وراء الناس في حمامتهم ، وأهل البصرة منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ففي ذلك يقول الشاعر من الخوارج :

يا كبدا من غير جوع ولا ظمإ … ويا كبدي من حب أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت … طعان امرىء في الحرب غير لئيم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل … وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول حدنا … وذلت شيوخ الأزد وهى تعوم

وبلغ ذلك أهل البصرة ، فهالهم وأفزعهم ، وبعث ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي على تلك الحرة، فقدم، وعزل عبد الله بن الحارث فأقبلت الخوارج نحو البصرة وقدم المهلب بن أبي صفرة على تلك من حال الناس من قبل عبد الله بن الزبير ، معه عهده على الخراسان ، فقال الأحنف للحارث ابن أبي ربيعة وللناس عامة : لا والله ، ما لهذا الأمر إلا المهلب بن أبي صفرة ، فخرج أشراف الناس ، فكلموه أن يتولى قتال الخوارج ، فقال : لا أفعل ، هذا عهد أمير المؤمنين معي على خراسان ، فلم أكن لأدع عهده وأمره ، فدعاه ابن أبى ربيعة فكلمه في ذلك فقال له مثل ذلك ، فاتفق ابن أبى ربيعة ورأى أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد ، فإن الحارث بن عبد الله كتب إلي أن الأزارقة المارقة أصابوا جندًا للمسلمين كان عددهم كثيرًا وأشرافهم كثيرًا، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة، وقد كنت وجهتك إلى خراسان، وكتبت لك عليها عهدًا ، وقد رأيت حيث ذكر هذه الخوارج أن تكون أنت تلي قتالهم ، فقد رجوت أن يكون ميمونًا طائرك، مباركًا على أهل مصرك ، والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خراسان، فسر إليهم راشدًا، فقاتل عدو الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرك ، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

فأتى بذلك الكتاب ، فلما قرأه قال : فإنى والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه، وتعطوني من بيت المال ما أقوى به من معى ، وأنتخب من فرسان الناس وجوههم وذوى الشرف من أحببت، فقال جميع أهل البصرة : ذلك لك قال: فاكتبوا لي على الأخماس بذلك كتابًا ففعلوا ، إلا ما كان من مالك بن مسمع وطائفة من بكر بن وائل ، فاضطغنها عليهم المهلب ، وقال الأحنف وعبيد الله بن زياد بن ظبيان وأشراف أهل البصرة للمهلب: وما عليك ألا يكتب لك مالك بن مسمع ولا من تابعه من أصحابه ، إذا أعطاك الذى أردت من ذلك جميع أهل البصرة ويستطيع مالك خلاف جماعة الماس أوله ذلك ! انكمش أيها الرجل واعزم على أمرك وسر إلى عدوك ففعل ذلك المهلب، وأمر على الأخماس فأمر عبيد الله بن زياد بن ظبيان على خمس بكر بن وائل، وأمر الحريش بن هلال السعدي على خمس بني تميم، وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصغر

عليهم عبيد الله بن الماحوز، فخرج إليهم في أشراف الناس وفرسانهم ووجوههم فحازهم عن الجسر ، ودفعهم عنه ، فكان أول شيء دفعهم عنه أهل البصرة ، ولم يكن بقي لهم إلا أن يدخلوا فارتفعوا إلى الجسر الأكبر ، ثم إنه عبأ لهم ، فسار إليهم في الخيل والرجال ، فلما أن رأوا أن قد أظل عليهم وانتهى إليهم ، ارتفعوا فوق ذلك مرحلة أخرى ، فلم يزل يحوزهم ويرفعهم مرحلة بعد مرحلة ، ومنزلة بعد منزلة ، حتى انتهوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له سلي وسلبري فأقاموا به ، ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أمر على قتال الأزارقة ، فأقبل من كان معه نحو البصرة ، فصرفهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة إلى المهلب ، ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه ، ووضع المسالح ، وأذكى العيون ، وأقام الأحراس ، ولم يزل الجند على مصافهم ، والناس على راياتهم وأخماسهم وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها ، فكانت الخوارج إذا أرادوا أبيات المهلب وجدوا محكمًا ، فرجعوا فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه . قال أبو مخنف : فحدثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف ابن الأحمر أن رجلاً كان في تلك الخوارج حدثه أن الخوارج بعثت عبيدة بن هلال والزبير بن الماحوز في خيلين عظيمين ليلاً إلى عسكر المهلب ، فجاء الزبير من جانبه الأيمن ، وجاء عبيدة من جانبه الأيسر ثم كبروا وصاحوا بالناس ، فوجدهم على تعبيتهم ومصافهم حذرين مغذين ، فلم يصيبوا للقوم غرة ، ولم يظفروا منهم بشيء ، فلما ذهبوا ليرجعوا ناداهم عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقال :

وجدتمونا وقرًا أنجادا　　لا كشفًا خورًا ولا أوغادا
هيهات ! إنا ذا صيح بنا أتينا

يا أهل النار ، ألا ابكروا إليها غدًا فإنها مأواكم ، قالوا : يا فاسق ، وهل تدخر النار إلا لك ولأشباهك ! إنها أعدت للكافرين وأنت منهم ، قال: أتسمعون ! كل مملوك لي حر إن دخلتم أنتم الجنة إن بقي فيما بين سفوان إلى أقصى حجر من أرض خراسان مجوسي ينكح أمه وابنته وأخته إلا دخلها ، قال له عبيدة : اسكت يا فاسق فإنما أنت عبد للجبار العنيد ، ووزير لظالم الكفور (يقصد بالسب لابن الزبير) ، قال : يا فاسق ، وأنت عدو المؤمن التقي ، ووزير الشيطان الرجيم (يقصد نافع بن الأزرق) فقال الناس لابن ظبيان : وفقك الله يا ابن ظبيان ، فقد والله أجبت الفاسق بجوابه ، وصدقته ، فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب على تعبيتهم وأخماسهم، وموافقهم الأزد، وتميم ميمنة الناس ، وبكر بن وائل وعبد القيس ميسرة الناس ، وأهل العالية في القلب وسط الناس .

وخرجت الخوارج على ميمنتهم عبيدة بن هلال اليشكري وعلى ميسرتهم الزبير بن الماحوز ، وجاءوا وهم أحسن عدة ، وأكرم خيولاً ، وأكثر سلاحًا من أهل البصرة ، وذلك لأنهم مخروا الأرض وجردوها ، وأكلوا ما بين كرمان إلى

الأهواز ، فجاءوا عليهم مغافر تضرب إلى صدورهم ، وعليهم دروع يسحبونها ، وسوق من زرد يشدونها بكلاليب إلى مناقهم ، فالتقى الناس فاقتتلوا كأشد القتال، فصبر بعضهم عامة النهار ، ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة منكرة ، فأجفل الناس وانصاعوا منهزمين لا تلوى أم على ولد حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ، وخافوا السباء ، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يفاع في جانب عن سنن المنهزمين .

ثم إنه نادى الناس : إلي إلي عباد الله ، فثاب إليه جماعة من قومه ، وثابت إليه سرية عمان فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضى جماعتهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ، ولعمرى ما بكم الآن من قلة ، إنى لجماعتكم لراض ، وإنكم أهل الصبر ، وفرسان أهل المصر ، وما أحب أن أحدًا ممن انهزم معكم فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، عزمت على كل امرىء منكم لما أخذ عشرة أحجار معه ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم .

ففعلوا ، ثم أقبل بهم راجعًا ، فلا والله ما شعرت الخوارج إلا بالمهلب يضاربهم بالمسلمين في جانب عسكرهم ثم استقبلوا عبيد الله بن الماحوز وأصحابه وعليهم الدروع والسلاح كاملاً ، فأخذ الرجل من أصحاب المهلب يستقبل الرجل منهم ، فيستعرض وجهه بالحجارة فيرميه حتى يثخنه ، ثم يطعنه بعد ذلك برمحه، أو يضربه بسيفه ، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قتل عبيد الله بن الماحوز ، وضرب الله وجوه أصحابه ، وأخذ المهلب عسكر القوم وما فيه ، وقتل الأزارقة قتلاً ذريعًا ، وأقبل من كان في طلب أهل البصرة منهم راجعًا ، وقد وضع لهم المهلب خيلاً ورجالاً في الطريق تختطفهم وتقتلهم ، فانكفأوا راجعين مفلولين ، مقتولين محروبين مغلولين ، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان ، وأقام المهلب بالأهواز ، ففي ذلك اليوم يقول الصلتان العبدي :

بسلي وسلبري مصارع فتية كرام وقتلى لم توسد خدودها

وانصرفت الخوارج حين انصرفت ، وإن أصحاب النيران الخمس والست ليجتمعون على النار الواحدة من الفلول وقلة العدد ، حتى جاءتهم مادة لهم من قبل البحرين ، فخرجوا نحو كرمان وأصبهان ، فأقام المهلب بالأهواز فلم يزل ذلك مكانه حتى جاء مصعب البصرة ، وعزل الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة عنها ، ولما ظهر المهلب على الأزارقة كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله ، من المهلب بن أبى صفرة ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فالحمد لله الذى نصر أمير المؤمنين ، وهزم

الفاسقين ، وأنزل بهم نقمته وقتلهم كل قتلة ، وشردهم كل مشرد ، أخبر الأمير أصلحه الله أنا لقينا الأزارقة بأرض من أرض الأهواز يقال لها سلى وسلبري ، فزحفنا إليهم ثم ناهضناهم ، فاقتتلنا كأشد القتال مليًا من النهار ، ثم إن كتائب الأزارقة اجتمع بعضها إلى بعض، ثم حملوا على طائفة من المسلمين فهزموهم، وكانت في المسلمين جولة قد كنت أشفقت أن تكون هى الأصرى منهم فلما رأيت ذلك عمدت إلى مكان يفاع فعلوته ، ثم دعوت إلى عشيرتى خاصة والمسلمين عامة ، فثاب إلي أقوام شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله من أهل الدين والصبر والصدق والوفاء ، فقصدت بهم إلى عسكر القوم ، وفيه جماعتهم وحدهم وأميرهم قد أطاف به أولو فضلهم فيهم ، وذوو النيات منهم فاقتتلنا ساعة رميًا بالنبل ، وطعنًا بالرماح ثم خلص الفريقان إلى السيوف ، فكان الجلاد بها ساعة من النهار مبالطة ومبالدة، ثم إن الله عز وجل أنزل نصره على المؤمنين ، وضرب وجوه الكافرين ونزل طاغيتهم في رجال كثير من حماتهم وذوى نياتهم فقتلهم الله في المعركة ثم اتبعت الخيل شرادهم فقتلوا في الطريق والآخاد والقرى ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله ، فلما أتى هذا الكتاب الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بعث به إلى الزبير فقرىء على الناس بمكة .

وكتب الحارث بن أبى ربيعة إلى المهلب : أما بعد فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه نصر الله إياك ، وظفر المسلمين ، فهنيئًا لك يا أخا الأزد بشرف الدنيا وعزها وثواب الآخرة وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله . فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال : أما تظنونه يعرفنى إلا بأخى الأزد ! ما أهل مكة إلا أعراب ، قال أبو مخنف : فحدثنى أبو المخارق الراسبي أن أبا علقمة اليحمدي قاتل يوم سلي وسلبري (وهم مكانان بالعراق) قتالاً لم يقاتله أحد من الناس ، وأنه أخذ ينادى في شباب الأزد وفتيان اليحمد : أعيرونا جماجمكم ساعة من نهار ، فأخذ فتيان منهم يكرون ، فيقاتلون ثم يرجعون إليه ، يضحكون ويقولون : يا أبا علقمة القدور تستعار ! فلما ظهر المهلب ورأى من بلائه ما رأى وفاه مائة ألف .

وقد قيل : إن أهل البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قبل المهلب أن يقاتل الأزارقة ، وأشار عليهم بالمهلب ، وقال : هو أقوى على حربهم منى ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتالهم شرط على أهل البصرة أن ما غلب عليه من الأرض فهو له ولمن خف معه من قومه وغيرهم ثلاث سنين ، وأنه ليس لمن تخلف عنه منه شيء ، فأجابوه إلى ذلك ، وكتب عليهم كتابًا وأوفدوا بذلك وفدًا إلى ابن الزبير . وإن ابن الزبير أمضى تلك الشروط كلها للمهلب وأجازها له ، وإن المهلب لما أجيب إلى ما سأل وجه ابنه حبيبًا في ستمائة فارس إلى عمرو القنا ، وهو معسكر خلف الجسر الأصغر في ستمائة فارس ، فأمر المهلب بعقد الجسر الأصغر ، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومن معه ، فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر ، وانهزموا حتى صاروا من ناحية الفرات ، وتجهز المهلب فيمن خف من

قومه معه ، وهم اثنا عشر ألف رجل ، ومن سائر الناس سبعون رجلاً وسار المهلب حتى نزل الجسر الأكبر ، وعمرو القنا بإزائه في ستمائة .

فبعث المغيرة بن المهلب (وهو والي خراسان للحجاج فيما بعد) في الخيل والرجالة ، فهزمتهم الرجالة بالنبل واتبعتهم الخيل ، وأمر المهلب بالجسر فعقد ، فعبر هو وأصحابه ، فلحق عمرو القنا حينئذ بابن الماحوز وأصحابه وهو بالمفتح ، فأخبرهم الخبر ، فساروا فعسكروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلب بقية سنته ، فجبى كور دجلة ، ورزق أصحابه ، وأتاه المدد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفًا .

وانقسم الخوارج على أنفسهم إلى فرقتين هم الإباضية والصفارية وعلا نجم الفارس العربي المهلب بن أبي صفرة الذى سيكون له الباع الكبير في الدولة الأموية ، لذلك ضعفت الجبهة من الجهة الأمنية حيث زادت الاضطرابات في خراسان بعد أن انقلب بنو تميم على واليها عبد الله بن خازم السلمي فكانت هذه الجبهة الشرقية مفتوحة للخوارج للحرب ولم يفعل عبد الله بن الزبير أى شيء لها بل عقد الأمور أكثر أنه عامل آل البيت بسوء بعد أن دخل المختار الكوفة في ربيع الأول عام٦٦هـ الموافق أكتوبر عام٦٨٥م حيث يروى الطبري أن عبد الله بن الزبير حبس محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة بزمزم ، وكرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة وهربوا إلى الحرم وتوعدهم بالقتل والإحراق ، وأعطى الله عهدًا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجلاً ، فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه أن يبعث إلى المختار وإلى من بالكوفة رسولاً يعلمهم حالهم وحال من معهم وما توعدهم به ابن الزبير ، فوجه ثلاثة نفر من أهل الكوفة حين نام الحرس على باب زمزم ، وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يعلمهم حاله وحال من معه وما توعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ويسألهم ألا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته ، فقدموا على المختار ، فدفعوا إليه الكتاب فنادى في الناس وقرأ عليهم الكتاب وقال : هذا كتاب مهديكم وصريح أهل بيت نبيكم ، وقد تركوا محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم ينتظرون القتل والتحريق بالنار في آناء الليل وتارات النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مؤزرًا ، وإن لم أسرب إليهم الخيل في أثر الخيل ، كالسيل يتلوه السيل ، حتى يحل بابن الكاهلية الويل .

ووجه أبا عبد الله الجدلي في سبعين راكبًا من أهل القوة ، ووجه ظبيان بن عمارة أخا بني تميم ومعه أربعمائة ، وأبا المعتمر في مائة ، وهانىء بن قيس في مائة ، وعمير بن طارق في أربعين ، ويونس بن عمران في أربعين وكتب إلى محمد بن علي مع الطفيل بن عامر ومحمد بن قيس بتوجيه الجنود إليه ، فخرج الناس بعضهم في أثر بعض وجاء أبو عبد الله حتى نزل ذات عرق في سبعين راكبًا ، ثم لحقه عمير بن طارق في أربعين راكبًا ، ويونس بن عمران في أربعين

راكبًا ، فتموا خمسين ومائة ، فسار بهم حتى دخلوا المسجد الحرام، وهم ينادون يا لثارات الحسين ! حتى انتهوا إلى زمزم ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان فطردوا الحرس ، وكسروا أعواد زمزم ، ودخلوا على ابن الحنفية ، فقالوا له : خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إنى لا أستحل القتال في حرم الله فقال ابن الزبير : أتحسبون أني مخل سبيلهم دون أن يبايع ويبايعوا ! فقال أبو عبد الله الجدلي : إى ورب الركن والمقام ، ورب الحل والحرام لتخلين سبيله أو لنجالدنك بأسيافنا جلادًا يرتاب منه المبطلون ، فقال ابن الزبير : والله ما هؤلاء إلا أكلة رأس ، والله لو أذنت لأصحابي ما مضت ساعة حتى تقطف رءوسهم ، فقال له قيس بن مالك : أما والله إنى لأرجو إن رمت ذلك أن يوصل إليك قبل أن ترى فينا ما تحب ، فكف ابن الحنفية أصحابه وحذرهم الفتنة ، ثم قدم أبو المعتمر في مائة ، وهانىء بن قيس في مائة وظبيان بن عمارة في مائتين ، ومعه المال حتى دخلوا المسجد، فكبروا : يا لثارات الحسين ! فلما رآهم ابن الزبير خافهم ، فخرج محمد بن الحنفية ومن معه إلى شعب علي وهم يسبون ابن الزبير ، ويستأذنون ابن الحنفية فيه ، فيأبى عليهم ، فاجتمع مع محمد بن علي في الشعب أربعة آلاف رجل ، فقسم بينهم ذلك المال ولكنه لم يصمت عن هذه الفعلة بل استعان بأخيه المصعب بن الزبير الذى ولاه على البصرة في المحرم من عام ٦٧هـ الموافق يوليو عام ٦٨٦ م حيث استطاع قتل المختار في شوال عام ٦٧ هـ الموافق أبريل عام ٦٨٧ م مما هدأ الوضع في العراق وإيران وأفغانستان نوع ما وجعله يفكر في جبهة الشام مع أن العراق لم ينتهى من اضطرابات الخوارج وخاصة الأزارقة الذين عادوا بقيادة قطرى بن الفجاءة في المحرم لعام ٦٨ هـ الموافق يوليو عام ٦٨٧ م ، وكذلك ثورة عبيد الله بن الحر الذى كان من ذيول الشيعة بعد المختار ولكن استطاع المصعب أن ينهى تلك الحركات بفضل المهلب بن أبي صفرة ، ويعلل الطبري أن الأحداث لم تتحرك أن الاضطرابات المناخية منعت من احتكاك عبد الملك بن مروان بعبد الله بن الزبير بن العوام طيلة عام ٦٨ هـ الموافق عام ٦٨٨ م ، ولكن لا يمنع هذا في أحداث ذى الحجة لعام ٦٨ هـ الموافق يونيو عام ٦٨٨ م أن الأمويين أرسلوا بعثة للحج مستغلة الشوكة التى قويت للحزب الشيعي الكيساني للإمام محمد بن علي بن أبى طالب ضد عبد الله بن الزبير وهذا ما يرويه الطبري فيقول وقفت في سنة ثمان وستين بعرفات أربعة ألوية : ابن الحنفية في أصحابه في لواء قام عند جبل المشاة ، وابن الزبير في لواء ثم تقدم ابن الحنفية بأصحابه حتى وقفوا حذاء ابن الزبير ، ونجدة الحروري خلفهما، ولواء بنى أمية عن يسارهما ، فكان أول لواء انفض لواء محمد ابن الحنفية ، ثم تبعه نجدة ، ثم لواء بني أمية ، ثم لواء ابن الزبير واتبعه الناس .

قال محمد : حدثنى ابن نافع ، عن أبيه قال : كان ابن عمر لم يدفع تلك العشية إلا بدفعه ابن الزبير ، فلما أبطأ ابن الزبير وقد مضى ابن الحنفية ونجدة وبنو

أمية – قال ابن عمر : ينتظر ابن الزبير أمر الجاهلية – ثم دفع ، فدفع ابن الزبير على أثره خفت الفتنة ، فمشيت إليهم جميعًا ، فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت : يا أبا القاسم اتق الله فإنا في مشعر حرام، وبلد حرام ، والناس وفد الله إلى هذا البيت ، فلا تفسد عليهم حجهم، فقال: والله ما أريد ذلك ، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلي ، ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير ، وما يروم منى ، وما أطلب هذا الأمر إلا ألا يختلف علي فيه اثنان ! ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك بنجدة ، قال محمد : فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية ، فقال : أنا رجل قد اجتمع علي الناس وبايعوني ، وهؤلاء أهل خلاف ، فقلت : أرى خيرًا لك الكف ، قال : أفعل ، ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه ، وأجد عكرمة غلام ابن عباس عنده ، فقلت له : استأذن لي على صاحبك ، قال : فدخل ، فلم ينشب أن أذن لي ، فدخلت فعظمت عليه ، وكلمته كما كلمت الرجلين ، فقال : أما أن أبتدىء أحدًا بقتال فلا ، ولكن من بدأ بقتال قاتلته ، قلت : فإنى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك ، ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا : نحن على ألا نقاتل أحدًا إلا أن يقاتلنا ، فلم أر في تلك الألوية قومًا أسكن ولا أسلم دفعة من ابن الحنفية ، وهذا يؤكد على ضعف عبد الله بن الزبير أنه كان يخاف حرب الأمويين في الشام وكان متجمدًا في مكانه دون حركة ولا يقوم بفعل شيء حتى ما نخر في بنيانه الشيعة والخوارج وتجمد الوضع عام ٦٩ هـ / ٧٠هـ الموافق عام ٦٨٩ م بسبب حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) على عبد الملك بن مروان ثم فشله ومقتله ومن ثم حركة العرب القاطنين بالثغور ضد عبد الملك بن مروان فعقد الصلح على أن يقوم عبد الملك بحرب ابن الزبير رضى الله عنه فبدأ بالعراق الذى أنهى فيه حكم مصعب بن الزبير بعد أن قتل في موقعة مسكن في جمادى الآخرة لعام ٩١ هـ الموافق نوفمبر لعام ٦٩٠م ولكن الذى شغل عبد الملك عن ابن الزبير في الحجاز هو قيام الخوارج في العراق مرة أخرى وفي البحرين الذى سيطروا عليه في المحرم لعام٧٢هـ الموافق يونيو عام ٦٩١ م وتم قتل نجدة بن عامر على يد أبى فديك الخارجى ومن هنا انقسم النجدات على أنفسهم فخرج منهم العجاردة واستطاع عبد الملك بن مروان أن يضم له المشرق الإسلامى بعد مقتل ابن خازم هناك ومن هنا أرسل جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ومعه طارق بن عمرو الثقفي في ذى الحجة لعام ٧٢ هـ الموافق أبريل عام ٦٩٢ م لحصار ابن الزبير في مكة جيش سيطر على الطائف والجيش الآخر سيطر على المدينة المنورة وحضر ابن الزبير الموسم سنة ثنتين وسبعين فحج بالناس وحج بأهل الشام الحجاج ولم يطوفوا بالبيت (وكان هذا آخر موسم للحج حضره عبد الله بن الزبير) ويروى الطبري في أحداث يوم السابع عشر من جمادى الآخرة لعام ٧٣ هـ الموافق العشرين من أكتوبر لعام ٦٩٢ م .

استشهاد عبد الله بن الزبير :

يروى الطبري فيقول في استشهاده نقلاً عن أحد الرواة : (رأيت المنجنيق يرمى به ، فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة ، فاشتمل عليها ، فأعظم ذلك أهل الشام ، فأمسكوا بأيديهم فرفع الحجاج بركة قبائه فغرزها في منطقته ، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه ، ثم قال : ارموا ، ورمى معهم قال : ثم أصبحوا فجاءت صاعقة تتبعها أخرى ، فقتلت من أصحابه اثنى عشر رجلاً ، فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام لا تنكروا هذا فإنى ابن تهامة ، هذه صواعق تهامة ، هذا الفتح قد حضر فأبشروا ، إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ، فصعقت من الغد ، فأصيب من أصحاب ابن الزبير عدة ، فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة ! فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى كان قبيل مقتله وقد تفرق عنه أصحابه ، وخرج عامة أهل مكة إلى الحجاج في الأمان ، رأيت ابن الزبير يوم قتل وقد تفرق عنه أصحابه وخذله من معه خذلانًا شديدًا ، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف .

وذكر أنه ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب ، فأخذا منه لأنفسهما أمانًا ، فدخل ابن الزبير على أمه السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم، فقال : يا أمه، خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ، فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال : هذا والله رأيي والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى يا أمه فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربي ، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسي ، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى ، فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنًا إن

تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك ، قال : جزاك الله يا أمه خيرًا ، فلا تدعى الدعاء لي قبل وبعد ، فقلت : لا أدعه أبدًا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبي اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . حدثنى الحارث ، قال : حدثنى ابن سعد قال : أخبرنى محمد بن عمر ، قال : أخبرنا ثور بن يزيد ، عن شيخ من أهل حمص شهد وقعة ابن الزبير مع أهل الشام ، قال رأيته يوم الثلاثاء وإنا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب لنا ندخله ، لا يدخله غيرنا ، فيخرج إلينا وحده في أثرنا ، ونحن منهزمون منه ، فما أنسى أرجوزة له :

إنى إذا أعرف يومي أصبر وإنما يعرف يوميه الحر
إذا بعضهم يعرف ثم ينكر

فأقول : أنت والله الحر الشريف ، فلقد رأيته يقف في الأبطح ما يدنو منه أحد حتى ظننا أنه لا يقتل ، رأيت الأبواب قد شحنت من أهل الشام يوم الثلاثاء وأسلم أصحاب ابن الزبير المحارس ، وكثرهم القوم فأقاموا على كل باب رجالاً وقائدًا وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بنى شيبة ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بنى جمح ، ولأهل قنسرين باب بنى سهم ، وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعًا في ناحية الأبطح إلى المروة ، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ، ومرة في هذه الناحية ، فلكأنه أسد في أجمة ما يقدم عليه الرجال ، فيعدو في أثر القوم وهم على الباب حتى يخرجهم وهو يرتجز :

إنى إذا أعرف يومى أصبر وإنما يعرف يوميه الحر

ثم يصيح : يا أبا صفوان :

ويل أمه فتحًا لو كان له رجال لو كان قرني واجدًا كفيته

قال ابن صفوان : إى والله وألف .

لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، بات ابن الزبير يصلى عامة الليل ، ثم احتبي بحمائل سيفه فأغفى ، ثم انتبه بالفجر فقال : أذن يا سعد ، فأذن عند المقام ، وتوضأ ابن الزبير ، وركع ركعتي الفجر ، ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه ، فقرأ : ﴿ ن والقلم ﴾ حرفًا حرفًا ، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اكشفوا وجوهكم حتى أنظر ، وعليهم المغافر والعمائم ، فكشفوا وجوههم فقال : يا آل الزبير ، لو طبتم لي نفسًا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا في الله لم تصبنا زباء بتة ، أما بعد يا آل الزبير ، فلا يرعكم وقع السيوف فإنى لم أحضر موطنًا قط إلا ارتثثت فيه من القتل ، وما أجد من أدواء

جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرءًا كسر سيفه واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عنى ، ولا تقولن : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا من كان سائلاً عني فإنى في الرعيل الأول .

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ملاقي المنايا أى صرف تيمما
فلست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

احملوا على بركة الله ، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون ، فرمى بآجرة فأصابته في وجهه فأرعش لها ، ودمى وجهه ، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وتغاووا عليه ، قال : وصاحت مولاة لنا مجنونة : وا أمير المؤنيناه ! قالا : وقد رأته حيث هوى ، فأشارت لهم إليه ، فقتل وإن عليه ثياب خز ، وجاء الخبر إلى الحجاج فسجد وسار حتى وقف عليه وطارق بن عمرو ، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا ، فقال الحجاج : تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ! قال : نعم ، هو أعذر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عذر ، إنا محاصروه وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو ، فبلغ كلامهما عبد الملك ، فصوب طارقًا .

حدثنا عمر قال : حدثنا أبو الحسن عن رجاله قال : إني أنظر إلى الزبير وقد قتل غلامًا أسود ضربه فعرقبه ، وهو يمر في حملته عليه ويقول : صبرًا يا ابن حام ففي مثل هذه المواطن تصبر الكرام .

حدثنى الحارث قال : حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال : حدثنى عبد الجبار بن عمارة ، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : بعث الحجاج برأس ابن الزبير ورأس عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبت بها ، ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان ، ثم دخل الحجاج مكة ، فبايع من بها من قريش لعبد الملك ابن مروان ، وأكبر الناس قتل ابن الزبير رضى الله عنه في الكعبة فخطبهم الحجاج قائلاً : (أيها الناس إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع أهلها وألحد في الحرام فأذاقه الله من عذابه الأليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير وكان في الجنة وهى أشرف من مكة فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التى نهى عنها أخرجه الله من الجنة ، قوموا إلى صلاتكم) ما أقبح الحجاج وأضله في القياس فلئن كان طلب الخلافة لنفسه فقد بايعه عليها الكثيرون ومن دانوا له بذلك أضعاف من كان يدينون لعبد الملك بن مروان ، وقد كان عبد الله بن الزبير صحابيًا جليلاً أما عبد الملك فكان تابعيًا .

ووالد عبد الله بن الزبير حواري الرسول ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمه أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين ، فإن طلب الخلافة فقد طلبها برصيد من الشرف والتقوى وحسن البلاء وصدق في الإسلام ، أما عبد الملك بن مروان فأبوه مروان وجده الحكم طريد رسول الله ﷺ وما ظفر عبد الملك بما ظفر به إلا بأمثال الحجاج المنافق وغيره الذين زينوا للناس بالباطل وسفكوا الدم الحرام في البلد الحرام .

أما تمثيل عبد الله بن الزبير بآدم عليه السلام فليس هناك علاقة بينهما واختراع الحجاج لهذا التمثيل إنما من شقشقة الكلام ، وذكر القول الحق الذى يراد به الباطل ، كما زعم قبل ذلك حين احترق المنجنيق أنه من قبيل القربان الذى يتقبله الله فينزل عليه نارًا تحرقه .

وقامت أمه السيدة أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين بغسله بعد ما تقطعت أوصاله وجاء الإذن من عبد الملك بن مروان عندما أبى الحجاج أن يأذن لها فحنطته وكفنته وصلت عليه وجعلت فيه شيئًا حين رأته يتفسخ إذا مسته وقال مصعب بن عبد الله حملته أمه فدفنته بالمدينة في دار صفية أم المؤمنين ثم زيدت دار صفية في المسجد فهو مدفون مع النبي ﷺ بقربه ، وماتت أمه بعده بشهرين أو نحو ذلك ولها قريب من مائة عام هى آخر من ماتت من المهاجرات الأول رضى الله عنها ويقال لها ذات النطاقين كانت أسن من عائشة بسنوات (بالتحديد ماتت في شهر شعبان لعام ٧٣ هـ الموافق ديسمبر عام ٦٩٢ م عن عمر يناهز السابعة والتسعين) روت عدة أحاديث حدث عنها أولادها عبد الله وعروة وابن العباس وفاطمة بنت المنذر وابن أبي مليكة ووهب بن كيسان وابن المنكدر والمطلب ابن عبد الله وخلق وهى وابنها عبد الله وأبوها أبو بكر وجدها أبو قحافة صحابيون أضرت بآخرة ولم يسقط لها سن وقد طلقها الزبير قبل موته زمن عثمان وكانت أسماء لا تدخر شيئًا لغد وقيل أعتقت عدة مماليك ومن أولادها عروة بن الزبير الفقيه وكانت طامتها الكبرى أن تصاب في بكرها عبد الله بن الزبير بن العوام ، ثم جاءت أمه فقالت للحجاج أما آن لهذا الراكب أن ينزل فقال الحجاج: المنافق . فقالت والله ما كان منافقًا إن كان لصوامًا قوامًا برًا قال : انصرفي يا عجوز فإنك قد خرفت قالت لا والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت ، وقد قابلت السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق طاغية مثله قبل ذلك وهو أبو جهل رأس الكفر الكبير عندما أتى إليها يستفسر عن أبيها وعن رسول الله ﷺ أثناء هجرتهما إلى يثرب فلم تخافه ولم تأبه فما كان منه إلا لطمها على خديها فانخلع قرطها من شدة يده . . وهذا يدل على قوة بأسها وشكيمتها وإيمانها وهذا الموقف تعرضت له في شبابها والآخر في كهولتها مع الحجاج بن يوسف الثقفى وهذا يدل على إيمان راسخ عميق .

عبد الله بن الزبير في الميزان :

كان عارضا ابن الزبير خفيفين فما اتصلت لحيته حتى بلغ الستين وكانت له جمة إلى العنق ولحية صفراء وكان آدم نحيفًا ليس بالطويل بين عينيه أثر السجود.

ذكر ابن الزبير عند ابن عباس فقال : قارىء لكتاب الله عفيف في الإسلام أبوه الزبير وأمه أسماء وجده أبو بكر وعمته خديجة وخالته عائشة وجدته صفية والله إنى لأحاسب له نفسى محاسبة لم أحاسب بها لأبى بكر وعمر ، وقالت عنه أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها قوام الليل صوام النهار وكان يسمى حمامة المسجد ، وكان ابن الزبير يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع وهو أليثنا قلت لعله ما بلغه النهى عن الوصال ونبيك ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم وكل من واصل وبالغ في تجويع نفسه انحرف مزاجه وضاق خلقه فاتباع السنة أولى ولقد كان ابن الزبير مع ملكه صنفًا في العبادة ، كان ابن الزبير إذا قام إلى الصلاة كأنه عود وحدث أن أبا بكر رضى الله عنه كان كذلك ، وكان يصلى كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك ، وقسم ابن الزبير الدهر على ثلاث ليال فليلة هو قائم حتى الصباح وليلة هو راكع حتى الصباح وليلة هو ساجد حتى الصباح، ركع ابن الزبير يومًا ركعة فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه رأيت ابن الزبير يواصل من الجمعة إلى الجمعة فإذا أفطر استعان بالسمن حتى يلين.

عن مجاهد قال : كنت مع ابن عمر فمر على ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما فوقف عليه فقال : رحمك الله فإنك ما علمت صوامًا قوامًا وصولاً للرحم وإنى لأرجو أن لا يعذبك الله عز وجل ثم التفت إلي فقال : أخبرني أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من يعمل سوءًا يجز به».

كل هذه صفاته الحسنة وله صفات أخرى حسنة مثل الشجاعة التى أبداها في سبيطلة والتى أبداها أثناء الحصار الذى توفى فيه في عام ٧٣ هـ الموافق عام٦٩٢م وكذلك مصارعته الجن خرج ابن الزبير في ليلة مقمرة على راحلة له فنزل في تبوك فالتفت فإذا على الراحلة شيخ أبيض الرأس واللحية فشد عليه ابن الزبير فتنحى عنها فركب ابن الزبير راحلته ومضى قال فناداه والله يا ابن الزبير لو دخل قلبك الليلة منى شعرة لخبلتك قال : ومنك أنت يا لعين يدخل قلبي شيء وقد روى لهذه الحكاية شواهد من وجوه أخرى جيدة وروى عبد الله بن المبارك عن إسحاق بن يحيى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : أقبل عبد الله بن الزبير من العمرة في ركب من قريش فلما كانوا عند furthermore

هكذا وإذا له سفلة وانكسر ونهرته وقلت إلي تتبد وأنت من أهل الأرض فذهب هاربًا وجاء أصحابي فقالوا أين الرجل الذى كان عندك فقلت إنه كان من الجن فهرب قال فما منهم رجل إلا سقط إلى الأرض عن راحلته فأخذت كل رجل منهم فشددته على راحلته حتى أتيت بهم الحج وما يعقلون وقال سفيان بن عيينة قال ابن الزبير دخلت المسجد ذات ليلة فإذا نسوة يطفن في بالبيت فأعجبنني فلما قضين طوافهن خرجن فخرجت في إثرهن لأعلم أين منزلهن فخرجن من مكة حتى أتين العقبة ثم انحدرن حتى أتين فجا فدخلن خربة فدخلت في إثرهن فإذا مشيخة جلوس فقالوا ما جاء بك يا ابن الزبير فقلت أشتهى رطبًا وما بمكة يومئذ من رطبة فأتوني برطب فأكلت ثم قالوا احمل ما بقى معاك فجئت به المنزل فوضعته في سفط وجعلت السفط في صندوق ثم وضعت رأسي لأنام فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت جلبة في البيت فقال بعضهم لبعض أين وضعه قالوا في الصندوق ففتحوه فإذا هو في السفط داخله فهموا بفتحه فقال بعضهم إنه ذكر اسم الله عليه فأخذوا السفط بما فيه فذهبوا به قال : فلم آسف على شيء أسفى كيف لم أثب عليهم وهم في البيت ، ويضاف لذلك الشهامة وشدة البأس والأنفة والنفس الشريفة والهمة العالية ، وكذلك له خطب تنم عن بلاغته .

ويروى أحد الرواة فيقول في هذا الصدد : خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإنكم جئتم من آفاق شتى وفودًا إلى الله عز وجل فحق على الله أن يكرم وفده فمن كان جاء يطلب ما عند الله فإن طالب الله لا يخيب فصدقوا قولكم بفعل فإن ملاك القول الفعل والنية النية القلوب القلوب الله الله فى أيامكم هذه فإنها أيام تغفر فيها الذنوب جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجون ما هنا ثم لبى ولبى الناس فما رأيت يومًا قط كان أكثر باكيًا من يومئذ .

وفوق كل هذه الصفات له صفات أخرى أضافها له المؤرخون وهذه الصفات تدينه مثل عيب البخل الذى أكدناه من خلال حديث ابن عباس رضى الله عنه عندما عامل آل البيت معاملة سيئة وهذا مؤكد من بطون المصادر التاريخية وهذا البخل والشح هو الذى جعله يفشل في إدارة دولته التى اتسعت أنحاءها ، وتوجد صفات أخرى سوف نحللها مع تحليل عوامل فشل دولته :

١ - **الحسد** : وهى صفة بارزة فيه لأنه من أسرة منافسة لأسرة عبد مناف بن قصى وخاصة أنه ينتمى إلى رهط أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها التى كان لها الفضل الكبير على الرسول ﷺ وهذا ما جعله يتكبر من هنا ويدعى ، وهذه الصفة برزت لنا في رغبته هو وأبيه في تكوين حزب آخر يعمل لحسابه منذ ٣٦ حتى عام ٧٣ هـ فهو الذى أوقع الحسين عليه السلام في فخ شيعة الكوفة حيث حرضه أن يقاتل مع أهل الكوفة في الوقت الذى كان ينصحه بقية القوم في عدم القتال .

٢ – الحذر الشديد : لعب من وراء الستار . . لعب أولاً وراء كره السيدة عائشة رضى الله عنها للإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه وتوارى وراء هذه النقطة وعندما فشل لعب بنفس الوتر الحساس مع الأنصار الذين كانوا يبغضون بنى أمية واستئثارهم للحكم وهذا الطبع كان في أخيه المنذر حتى نجح عبد الله بن الزبير في قيام دولته .

٣ – لم يكن عبد الله بن الزبير على درجة عالية من الموهبة فلو رأينا قصة حياته نجد أنه لم يقم بأى شيء ذا بال إلا في موقعة سبيطلة والتى اعتمد فيها على ذكاءه وكان أحد نساخ المصحف الشريف لكنه شخصيًا لم يكن موهوبًا بدليل أنه فشل في إدارة دولته فالفرصة واتته أكثر من مرة فموت يزيد ومن بعده ابنه معاوية وتفكك الدولة الأموية كانت محتاجة أن يتدخل في شئون الدولة الأموية أكثر عما قبل وكانت الفرصة مواتية له طيلة عهد معاوية ، لأنه ومع أن الدولة الأموية في فترة الاضطراب لا في فترة انحلال إلا أنها تماسكت وهذه ميزة وللأسف والله لصالح مروان وابنه عبد الملك ومهما أنهم طغاة لكنهم على الأقل أعادوا وحدة الدولة العربية .

٤ – عدم التركيز : فإنه فتح على نفسه جبهات دون أن يشعر ولم يستطع أن يغلقها فعادى أهل البيت عداوة شديدة ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد : أن عبد الله بن الزبير ترك الصلاة على سيدنا محمد ﷺ في خطبته ، فقيل له : لم تركت الصلاة على النبي ؟ فقال : إن له أهل سوء يشرأبون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به ، وعادى الخوارج فكانت له شوكة ضعف هؤلاء قاموا بثورات ظلت حتى ما أنهى عبد الملك على حكمه .

٥ – الأنانية : وهى أغرب صفة رأيتها والأزرقي (مؤلف كتاب تاريخ مكة) يوضحها في تاريخ مكة أنه أخذ الشرف في وضع الحجر الأسود وهى عادة يجب أن يوضع الحجر من كل قبائل قريش عن طريق حيلة إطالة الصلاة حتى يتسنى لابنه عباد بن عبد الله بن الزبير بن العوام وضع الحجر الأسود بمفرده وكذلك قام بمحاولة الحجر على خالته السيدة عائشة رضى الله عنها وهذا ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، فقالت : أهو قال هذا ؟ قالوا : نعم ، قالت عائشة : فهو لله نذر أن لا أكلم ابن الزبير كلمة أبدًا ، فاستشفع ابن الزبير بالمهاجرين حين طالت هجرتها إياه ، فقالت : والله لا أشفع فيه أحدًا أبدًا ، ولا أحنث نذري الذى نذرت أبدًا فلما طال على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وهما من بني زهرة فقال لهما : أنشدكما الله إلا أدخلتماني على عائشة فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي فأقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين عليه بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة ، فقالا : السلام على النبي ورحمة الله وبركاته ، أندخل ؟ فقالت عائشة : ادخلوا قالوا : أكلنا يا

أم المؤمنين ؟ قالت : نعم ، ادخلوا كلكم ، ولا تعلم عائشة أن معهما ابن الزبير فلما دخلوا دخل ابن الزبير في الحجاب واعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكى ، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدان عائشة إلا كلمته وقبلت منه ، ويقولان : قد علمت أن رسول الله ﷺ نهى عما قد علمت من الهجر ، وأنه لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، فلما أكثروا التذكير والتحريج طفقت تذكرهم وتبكى وتقول : إنى قد نذرت والنذر شديد ، فلم يزالوا بها حتى كلمت ابن الزبير ، ثم أعتقت بنذرها أربعين رقبة لله ، ثم كانت تذكر بعدما أعتقت أربعين رقبة ، فتبكي حتى تبل دموعها خمارها .

٦ - **أخيراً** فعبد الله بن الزبير من الجيل الذى آمن بوجود **فكرة الخلافة في** الحجاز لا لأن تكون شورى بين المسلمين لكن لا تنتقل من المدينة المنورة.لأنه رفض انتقالها إلى الشام وقت ما عرضه عليه لكنه نسى أن الحجاز استقر على وضعه كولاية منذ عام ٣٦ هـ الموافق عام ٦٥٦ م وليس كعاصمة للدولة وهذا هو الشيء تقريبًا المثالي في ثورة ابن الزبير رضى الله عنه وبه تنتهى الفكرة هذه ويفكر العباسيون في إسقاط الدولة من الشام وليس من الحجاز ويتركون الحجاز يكون مركزًا للأدب والفقه الإسلامي على وضعه كما كان في الجاهلية .

روايته للحديث الشريف :

وله صحبة ورواية أحاديث عداده في صغار الصحابة وإن كان كبيرًا في العلم والشرف والجهاد والعبادة وقد روى أيضًا عن أبيه وجده لأمه الصديق وأمه أسماء وخالته عائشة وعن عمر وعثمان وغيرهم حدث عنه أخوه عروة الفقيه وابناه عامر وعباد وابن أخيه محمد بن عروة وعبيدة السلماني وطاووس وعطاء وابن أبى مليكة وعمرو بن دينار وثابت البناني وأبو الزبير المكى وأبو إسحاق السبيعي ووهب بن كيسان وسعيد بن ميناء وحفيداه مصعب بن ثابت بن عبد الله ويحيى ابن عباد بن عبد الله وهشام بن عروة وفاطمة بنت المنذر بن الزبير وآخرون .

١ - عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : «لو اتخذت خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخى وصاحبي في الغار».

٢ - وعن عبد الله بن الزبير قال : « مر النبي ﷺ بنفر من أصحابه وقد عرض لهم شيء يضحكهم فقال : أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم ؟ ونزلت هذه الآية ﴿ نبىء عبادي أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ » .

٣ - وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنما سمى الله البيت العتيق ؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط » .

٤ - سأل رجل عبد الله بن الزبير عن طين المطر قال : سألتنى عن طهورين جميعًا قال الله تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهورًا ﴾ وقال رسول الله ﷺ : «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ».

٥ - عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول دبر الصلاة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وكان له فوق ذلك باع في تفسير القرآن الكريم حيث فسر العديد من الآيات التى تعول عليه وكذلك له معرفة كبيرة بأسباب نزول الآيات ، ويعتد في رأيه في معرفة السور المكية عن السور المدنية وكذلك له باع في القصص القرآني فيؤخذ منه قصة سيدنا لقمان عليه السلام ، وإن لم يكن له الباع الكبير في الفقه وهذا يؤكد على أن خبرته العلمية عمومًا في الحياة مسطحة وليست عميقة، وعمومًا فهو شخصية محيرة بها عيوب مثل البخل والأنانية والجبن والحذر الشديد والإساءة لذويه ولآل بيت رسول الله ﷺ والحسد إلا أنه يتميز بالذكاء الشديد والأنفة وحب المكارم لأنه من بيت عريق محتد الأصل لكن الظروف التى عاشها التى جعلت ذلك الشخص وخاصة أنه كان من الأكابر وأهله من السابقين في الإسلام فأوجدت في نفسه نوعًا من الغيرة في الوقت نفسه كان مقتنعًا أن هذا السلطان الذى وصل إليه لا يستحقه لأنه ليس من بنى عبد مناف وأن عائلته لم تكن بارزة في الجاهلية جعلته يقتنع تمامًا بأنه لا يستحق هذا السلطان الذى أتى له على طبق من فضة فلم يحافظ عليه وضاع منه هباء وظل له أنصار وحزب وهذا ما نراه .

أولاده :

ولد عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين رضى الله عنه خبيبًا ، وخبيب هذا من مواليد عام ٢٢ هـ الموافق عام ٦٤٣ م وكان مع أبيه في كل المواقع التى شهدها وبعد أن قتل أبوه في عام ٧٣هـ الموافق عام ٦٩٢ م تولى رئاسة الحزب الزبيرى العامل إلى نقل الخلافة في آل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وعرف له نشاط سياسي في شعبان عام ٩٣ هـ الموافق أبريل عام ٧١٢ م قتل على أثره ويقول فيه عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه خامس الخلفاء الراشدين ص٦٨ ، وكان الحجاج في الوقت نفسه قد أرسل إلى الخليفة الأموي السادس الوليد بن عبد الملك بن مروان يخبره أن خبيب بن عبد الله بن الزبير يعد للثأر لأبيه عبد الله بن الزبير وللوثوب على الملك ، وعمر بن عبد العزيز (وكان واليًا على المدينة وقتها) على الرغم من ذلك يوادعه فغضب الوليد وأرسل إلى عمر يأمره بضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير ويصب على رأسه ماءًا باردًا ، وكان الوقت شتاء شديد البرودة فضربه عمر خمسين سوطًا وصب على رأسه ماءً باردًا ووقفه على باب المسجد النبوي فمات من يومه ، وأمر غلامًا له أن يصنع شيئًا فتلكأ فنهره عمر فرد عليه الغلام ردًا ضايقه فهم عمر أن يضربه فقال الغلام : لم تضربني ، قال عمر : لأنك أخطأت ، قال الغلام : ألم تخطىء أنت خطأ غضب به عليك مولاك ، كظم عمر غيظه وكان منظر خبيب وهو يترنح حتى الموت ما زال يعذبه وقال :

نعم ، قال الغلام : فهل عجل عليك مولاك في العقوبة ، فلم تعجل علي ولم يعجل عليك .

وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن وكان إذا بشر بشيء من أمر الآخرة يقول وكيف وخبيب لي بالطريق وفي رواية : يقول هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق ثم يصيح صياح المرأة الثكلى وكان إذا أثنى عليه يقول خبيب وما خبيب إن نجوت منه فأنا بخير وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيبًا فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء وكانت تلك هفوة منه وزلة ولكن حصل له بسببها خير كثير من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعدل وصدقة وبر وعتق .

وأنه بضربه عمر لخبيب كفى الله المسلمين شر آل الزبير بن العوام وجعل منهم نساك وعبدة يضرب بهم المثل مثل عباد وعامر إخوته وكان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه أولاد عدة هم حمزة ، ثابت ، موسى (أبو بكر ، وأمه عائشة بنت أمير المؤمنين عثمان بن عفان) ، هاشم ، قيس ، عروة ، الزبير ، عبد الله (أم الحسن وأمها نفيسة بنت سيدنا الحسن بن علي رضى الله عن أبيها وعن جدها آل البيت) ومن أحفاد عبد الله بن الزبير صاحب كتاب نسب قريش الزبير بن بكار وهو من أحفاد ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام وإبراهيم بن موسى بن صديق بن موسى بن عبد الله بن الزبير أحد فقهاء المدينة ومن تلامذة الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي ولعبد الله بن الزبير سلالة هنا في مصر فعائلات مصلح ، بدر ، رمضان ، المقيمين في البهنسا بني سويف وهم مجاورين لأولاد عمومتهم بني المصعب بن الزبير وبني عروة بن الزبير المستقرين في المنيا تحت أسماء عائلات الرواقي والمغني ، وتنتسب لابنه عباد بن عبد الله بن الزبير قبائل العبابدة المقيمة في الصحراء الشرقية والأخصاص بالجيزة ومن أشهر عائلاتها أبو طماعة ، فرجان ، الأسرة الأباظية من أشهر العائلات في مصر .

سلام الله عليك أيها الصحابي الجليل
ابن الصحابي الجليل وابن الصحابية الجليلة
من محب لأهل البيت سليل قبائل الأنصار الخزرج
الأنصارى الخزرجى / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ
الإسكندرية

* * *

خطيب الظلماء
الحجاج بن يوسف الثقفي

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس (وهو ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ويقولون كانت أم قسي أميمة بنت سعد بن هذيل (من رهط الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) عند منبه ابن النبيت فتزوجها منبه بن بكر فجاءت بقسي معها من الإيادى (منبه ين النبيت) والله أعلم الثقفي ، عامل الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان فلما توفى عبد الملك وتولى ابنه الخليفة السادس الوليد أبقاه على ما بيده ، وقال المسعودى في كتاب مروج الذهب إن أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي .

مولده :

ولد الحجاج بن يوسف في عام ٤١ هـ الموافق عام ٦٦١ م على أدق الروايات ويروي ابن خلكان رواية في كتابه وفيات الأعيان - الجزء الثانى - ص ٢١ عن ميلاده « كانت أمه تحت الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي (حكيم العرب أى طبيب العرب) فدخل عليها مرة سحرًا فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فقالت لم بعثت إلي بطلاقي هل لشيء رابك مني قال: نعم دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن لكنى تخللت من شظايا السواك ، فتزوجها بعده يوسف بن أبى عقيل الثقفي فولدت له الحجاج مشوها لا دبر له فنقب عن دبره وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها فأعياهم أمره فيقال إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة المقدم ذكره فقال ما خبركم قالوا بنى ولد ليوسف من الفارعة وقد أبى أن يقبل ثدي أمه فقال اذبحوا جديًا أسود وأولغوه دمه فإذا كان في اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسًا أسود وأولغوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخًا فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع قال ففعلوا به ذلك فكان لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في أول أمره ، وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ويقال إن هذه القصة ترد على المغيرة بن شعبة ولكنها غير دقيقة فالأول أصح وهى أن أمه كانت زوجة للطبيب الحارث بن كلدة الثقفي . قال الإمام الشافعى (صاحب المذهب المعروف) فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له في النوم ما أسرع ما ألقحت بالمبير (شديد الظلم وقد بشر به الرسول ﷺ قبل مجيئه يأتى من ثقيف رجلان أحدهما كذاب (وهو المختار بن أبى عبيد الثقفي وهو من أخوال الحجاج) والثانى مبير وهو الحجاج بن يوسف الثقفي) . ويقول المؤرخون أن أم أبيه يوسف الثقفي هى المتمنية (كانت تتمنى أن تشرب خمر أو تزني) وكانت كنانية (أى من قبيلة كنانة) وقالت شعر في غرامها بنصر بن الحجاج بن علاط السلمي معبود النساء في ذلك الوقت وكان شعرها :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

ويقال أنها سمت الحجاج على اسم والد نصر بن الحجاج لولعها وهيامها بجماله المنقطع النظير . أما عن والد الحجاج فهو يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن معتب الثقفي فهو من عائلة شهيرة جدًا حيث كان مسعود بن معتب الثقفي كان من أصدقاء عبد المطلب بن هاشم زعيم قريش جد الرسول ﷺ لدرجة أنهم كانوا يتزاورون ، وكان سيدًا لثقيف كما كان

عبد المطلب سيدًا في مكة وكان من ولده عروة ، أبو عامر جد المغيرة بن شعبة ، الأسود والد قارب بن الأسود أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، أما عن أسرة يوسف المقربين فمحمد عم الحجاج جد الفاتح العظيم محمد بن القاسم الثقفي (فاتح بلاد السند) وكان يوسف هذا يعلم الصبيان قراءة القرآن الكريم فتعلم الحجاج من الصغر القرآن الكريم وأصبح بليغًا في ذلك (وكان والداه أيضًا من تلاميذ الإمام علي بن أبي طالب) .

تقربه لأصحاب المناصب :

عندما شب الحجاج وكان مع أبيه يوسف الثقفي في تحفيظ القرآن الكريم واللغة العربية تقرب والده إلى أصحاب المناصب ومن أهم أصدقائه قاضي مصر سليم بن عنز التجيبي (وكان من قبيلة تجيب القحطانية) وكان هذا قاضيًا على مصر في عهد معاوية بن أبى سفيان وتم عزله حوالي - كما يقول ابن عساكر - في عام ٥٩ هـ الموافق عام ٦٧٩ م (والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر في جامعها ، جامع عمرو بن العاص) فاجتاز بهما سليم بن عنز هذا فنهض إليه أبو الحجاج فسلم عليه وقال له إنى ذاهب إلى أمير المؤمنين فهل من حاجة لك عنده قال : نعم تسأله أن يعزلني عن القضاء فقال : سبحان الله والله لا أعلم قاضيًا اليوم خيرًا منك ثم رجع إلى ابنه الحجاج ، فقال له ابنه : يا أبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفي فقال له : يا بني والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله فقال والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله فقال ولم يا بني قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ولا يرونها شيئًا عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ولا يرون طاعته والله لو خلص لي من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله فقال له أبوه يا بني والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقيًا وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عند الخليفة وأنه كان ذا فراسة صحيحة فإنه تفرس في ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك ، وكانت هذه البداية أن يعرف أباه أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان .

ثم تروى الروايات وهذا من خلال الطبري أن بداية الحجاج مع الخلفاء الأمويين بدأت منذ عام ٦٤ هـ الموافق عام ٦٨٤ م عندما كان في جيش حبيش بن دلجة وقد انهزم هذا الجيش فانضم للشرطة بعد وفاة الخليفة الأموي مروان بن الحكم في عام ٦٥ هـ الموافق ٦٨٥ م وتولى ابنه عبد الملك الخلافة فجعل روح بن زنباع الجذامي وزيره فكان في عديد شرطته (الحجاج) إلى أن رأى عبد الملك انحلال عسكره وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فشكا ذلك إلى روح بن زنباع فقال له إن في شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف قال : فإنا قد قلدناه ذلك فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يومًا وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون فقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين قالوا له : انزل يا ابن اللخناء (وهو سب) فكل معنا قال لهم هيهات ذهب ما هنالك ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع الجذامى (الوزير) فأحرقت بالنار فدخل روح على عبد الملك باكيًا وقال يا أمير المؤمنين إن الحجاج الذى كان في شرطتي ضرب غلماني وأحرق فساطيطي (خيامى) قال علي به فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت قال : أنا ما فعلت قال ومن فعل قال أنت فعلت إنما يدى يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمنى له فأخلف لروح ما ذهب له وتقدم الحجاج في منزلته وكان ذلك أول ما عرف من كفايته .

وكانت البداية له في عام ٧٣ هـ الموافق عام ٦٩٢ م في حصار مكة المكرمة المعروف الذى راح ضحيته أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بن العوام (وقرأ كاتب هذه السطور الأنصارى الخزرجى / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ في هذا الصدد عندما كانت تضرب الكعبة بالمنجنيق كانت تئن كأنين الإنسان أى كلمة آه كما يقولها الإنسان ساعة الألم وكنت قرأت هذه المعلومة في أحد المعاجم في مكتبة مكة المكرمة الذى كان قبل ذلك بيت الرسول ﷺ الذى ولد به) وتولى بعدها ولاية الحجاز والتى ظل فيها حتى عام ٧٥ هـ الموافق عام ٦٩٤ م وعندما فرغ من حصار مكة المكرمة ذهب إلى المدينة المنورة ويروى المؤرخون أنه ضرب على يد سعيد بن المسيب (تابعى جليل) وهو الوحيد الذى رفض بيعة عبد الملك بن مروان كر راجعًا إلى المدينة نائبًا عليها فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب فقصده الحجاج فخشى الناس على سعيد منه فجاء حتى جلس بين يديه فقال له أنت صاحب الكلمات فضرب سعيد صدره بيده وقال نعم قال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك ثم قام ومضى ، وهذا دلالة على كرامة لسعيد بن المسيب أن يتركه شخص مثل الحجاج بن يوسف الثقفي وأحدث الحجاج الرعب في أهل المدينة المنورة التى لم تعد تحتمل أحدًا بعد موقعة الحرة حيث يروى الأصمعى سمعت عمى يقول بلغنى أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقى شيخا خارجًا من المدينة المنورة فسأله عن حال أهل المدينة فقال بشر حال قتل ابن حوارى رسول الله ﷺ فقال الحجاج ومن قتله فقال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته من قليل المراقبة لله فغضب الحجاج غضبًا شديداً ثم قال أيها الشيخ أتعرف الحجاج إذا رأيته قال : نعم فلا عرفه الله خيرًا ولا وقاه ضرًا فكشف الحجاج عن لثامه وقال ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة فلما تحقق الشيخ الجد قال والله إن هذا لهو العجب يا حجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة أنا العباس بن أبي داود أصرع (أى يصاب بمرض الصرع) كل يوم خمس مرات فقال الحجاج انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه .

وأخذ الحجاج بعد ذلك يتقرب إلى جماعة الحزب الزبيري الذى كان يرأسهم خبيب بن عبد الله بن الزبير فتقرب لإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله وكان من رؤساء آل طلحة وكان من أنصار ابن الزبير وأمه هى أم الحسن المثنى بن سيدنا الإمام الحسن رضى الله عنه فهو رجل له قدر في الحجاز ولكفاءته العسكرية سمى أسد الحجاز وسيكون مع الحجاج في جميع حروبه بالعراق ، فيروى القاضي المعافي بن زكريا في كتاب الجليس والأنيس عن بداية هذه العلاقة لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة فلم يزل على حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان زائرًا له فخرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئًا فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه فلما دخل على عبد الملك لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له والله فيها نظير في كمال المروءة والأدب والرئاسة والديانة والستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة ووجوب الحق إبراهيم ابن طلحة بن عبيد الله وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل به ما يفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه فقال عبد الملك ذكرتنا حقًا واجبًا ورحمًا قريبة يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة فلما دخل قربه حتى أجلسه على فراشه ثم قال له يا ابن طلحة إن أبا محمد (الحجاج بن يوسف) أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق فلا تدعن حاجة من خاص أمرك ولا عامه إلا ذكرتها قال : يا أمير المؤمنين إن أولى الأمور أن تفتح بها الحوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضى

ولحق نبيه أداء ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة وإن عندى نصيحة لا أجد بدا من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال فأخلني ترد عليك نصيحتى قال: دون أبى محمد قال: نعم، قال: قم يا حجاج فلما جاوز الستر قال : قل يا ابن طلحة نصيحتك قال : الله يا أمير المؤمنين قال: الله قال : إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالي المنتسبة الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم يسومهم الخسف ويقودهم العسف ويحكم فيهم بغير السنة ويطؤهم بطغام من أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا إزاحة باطل ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك وبين رسول الله يخلصك إذا جاثاك للخصومة في أمته أما والله لا تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة فأبق على نفسك أو دع فقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » فاستوى عبد الملك جالسًا وكان متكئًا فقال : كذبت لعمر الله ومنت ولؤمت فيما جئت به قد ظن بك الحجاج ما لم يجده فيك وربما ظن الخير لغير أهله قم فأنت الكاذب المائن الحاسد قال : فقمت والله ما أبصر طريقًا فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله فقال للحاجب احبس هذا الرجل وأدخل أبا محمد الحجاج فلبثت مليًا وأنا لا أشك أنهما في أمرى ثم خرج الآذن فقال: قم يا ابن طلحة فادخل فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتقنى وقبل ما بين عيني ثم قال إذا جزى الله المتآخيين بفضل تواصلهما فجزاك الله أفضل ما جزى به أخا فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك ولأعلين كعبك ولأتبعن الرجال غبار قدميك . قال : فقلت : يهزأ بي فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني في مجلسي الأول ثم قال : يا ابن طلحة لعل أحدًا من الناس شاركك في نصيحتك قال : قلت لا والله ولا أعلم أحدًا كان أظهر عندى معروفًا ولا أوضح يدًا من الحجاج ولو كنت محابيًا أحدًا بديني لكان هو ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله والمسلمين ولو أردت الدنيا لكان لي في الحجاج أمل فقال : قد علمت ذلك وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغارًا ووليته العراقين (الكوفة والبصرة) لما هناك من الأمر التى لا يرحفها إلا مثله وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدى به عني إليك أجر نصيحتك فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريطه إياك ويدك عنده قال فخرجت على هذه الجملة .

ولايته للعراق :

حدث أن مات بشر بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان في رمضان لعام ٧٥ هـ الموافق شهر ديسمبر لعام ٦٩٤ م والي العراق فعين عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف وذلك أن العراق مليء بثورات الخوارج لأن الشيعة كانوا ميالين للسلم في تلك الفترة أما الزبيرية فاكتفوا بالمناصب فمن هنا زاد نشاط الخوارج في العراق ويقول الرواة حادث توليه بقولهم: (بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتانا آت فقال هذا الحجاج بن يوسف قد قدم أميرًا على العراق فإذا به قد دخل المسجد متعممًا بعمامة غطى بها أكثر وجهه متقلدًا سيفًا متنكبًا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق قال عمير بن ضابىء البرجمى (وهذا الملعون أحد قتلة أمير المؤمنين المظلوم عثمان بن عفان صهر رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم والأدهى من ذلك أن أباه حاول أن يغتال الرسول ﷺ في خيبر وهو من قبيلة تميم وأحد بنى برجم فرع من فروع تلك القبيلة) ألا

أحصبه لكم فقالوا أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال والله يا أهل الكوفة والعراق إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى وإن أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي لأنكم طال ما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون والله إنى ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئًا فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال يسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئًا هذا أدب ابن نهية (يقصد بها أنهم تربوا تربية قذرة) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ عليهم يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم لم يبق أحد في المسجد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبرًا فقال أيها الأمير إنى من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار منى أفتقبله بدلا منى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال : لا قال هذا عمير بن ضابىء البرجمى الذى يقول أبوه في عثمان بن عفان :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ (عمير بن ضابىء البرجمى لعنة الله عليه وعلى أبيه) على عثمان بن عفان رضى الله عنه مقتولاً فوطىء بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال له الحجاج أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمه الله تعالى بديلاً يوم الدار إن في قتلك أيها الشيخ لصلاحًا للمسلمين يا حرسى اضربن عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففى ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدى (الشاعر الأموي المعروف وهو من شيعة آل البيت وهو ليس عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابي الجليل على الرغم من أن الاثنين أسديان فالأول من بنى أسد بن خزيمة رهط أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش والثاني من بنى أسد بن عبد العزى رهط السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد حبيبة رسول الله ﷺ .

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء عميرًا وإما أن تزور المهلبا

أول ما تولى الحجاج العراق في عام ٧٥ هـ الموافق عام ٦٩٤ م واجه ثورات الخوارج وبدأت ثورات الخوارج بالصفارية (وهى إحدى فرق الخوارج) التى كان يتزعمهم صالح بن مسرح الذى بدأ ثورته في صفر ٧٦ هـ الموافق مايو ٦٩٥ م وانتهت بقتله في جمادى الأول ٧٦ هـ الموافق أغسطس ٦٩٥ م فقاد جماعة الصافرية شبيب بن يزيد الشيباني الذى كانت له أكبر الثورات والتى هزت عرش الحجاج والتى انتهت في عام ٧٧ هـ الموافق عام ٦٨٦ م ومن خلفه قطري بن الفجاءة الذى قتل في رمضان لعام ٧٧ هـ الموافق ديسمبر ٦٩٦م (تنسب إليه دولة قطر حيث أنه من أعلامها وله متحف يحمل اسمه) وبعد انتهاء هذه الثورة الأخيرة لم

تعدو الخوارج إلا في عهد أمير المؤمنين الخليفة الأموي الثامن عمر بن عبد العزيز مرة أخرى وهدأت الأحوال ويروى المؤرخون مدى الجبن والخوف الذى وصل إليه الحجاج بن يوسف الثقفي من الخوارج قال القاضي أبو الفرج المعافي حدث العتبي قال : كانت امرأة من الخوارج يقال لها فراشة وكانت ذات نية (لها باع في الحرب) في رأى الخوارج تجهز أصحاب البصائر ولم يظفر بها وكان الحجاج يدعو الله أن يمكنه منها أو من بعض من جهزته فراشة فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقيل له هذا ممن جهزته فراشة فخر ساجدًا ثم رفع رأسه فقال : يا عدو الله قال : أنت أولى بها يا حجاج قال أين فراشة قال : مرت تطير منذ ثلاث قال أين تطير قال : ما بين السماء والأرض قال أعن تلك سألتك عليك لعنة الله قال عن تلك أخبرتك عليك غضب الله قال : سألتك عن المرأة التى جهزتك وأصحابك قال : وما تصنع بها قال أضرب عنقها ، قال : ويلك يا حجاج ما أجهلك أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله لقد ضللت إذن وما أنت من المهتدين قال فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك قال على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين قال : ولم لا أم لك قال : إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض قال : وما هى قال : استعماله إياك على رقاب المسلمين فقال لجلسائه : ما رأيكم فيه قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد، قال : ويحك يا حجاج جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك قال: وأى أخوى تريد قال فرعون حين شاور في موسى فقالوا أرجه وأخاه وأشار هؤلاء عليك بقتلى قال : فهل جمعت القرآن ، قال : ما كان مفرقًا فأجمعه ، قال : أقرأته ظاهرًا ؟ قال : معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه ، قال : فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك ؟ قال : ألقاه بعملى وتلقاه بدمى قال : إذن أعجلك إلى النار ؟ قال : لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ خلافك ومناقضتك . قال : إنى قاتلك قال : إذن أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك قال : نقمعك عن الكلام السيء يا حرسي اضرب عنقه وأومأ إلى السياف ألا تقتله فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف فلما طال ذلك رشح جبينه قال : جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق ولكن أبطأت علي بما فيه راحة قال: يا حرسي أوجب جرحه فلما أحس بالسيف قال : لا إله إلا الله والله لقد أتمها ورأسه في الأرض .

ولم تكتف الثورات بل قامت ثورات أخرى من قبل رجال دولته مثال ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة الذى انقلب عليه عندما قلل الحجاج من شأنه وكان رجل ذى حيثية في العراق ولكن انتهت بثورته وقتل في خراسان في عام ٧٧ هـ الموافق عام ٦٨٦ م ، وبلغ من الخوارج أنهم متمكنين من الحجاج هذه الرواية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة فقال لحرسه ايتنى بمحدث من المسجد فأتاه بسبرة بن الجعد فدخل وسلم بلسان ذلق وقلب شديد فقال له الحجاج : ممن الرجل ؟ قال : من بنى شيبان ، قال : ما اسمك ؟ قال : سبرة بن الجعد ، قال : يا سبرة قرأت القرآن ؟ قال : قد جمعته في صدري فإن عملت به فقد حفظته وإن خالفته فقد ضيعته فاتخذه الحجاج سميرًا فما كان يتطلب شيئًا من الحديث إلا وجد عنده منه وكان يرى رأى الخوارج وكان من أصحاب قطري بن الفجاءة المزنى التميمى والفجاءة أمه وكانت من بنى شيبان وإنما هو رجل من تميم وكان قطري يومئذ يحارب المهلب فبلغ قطريًا ما كان من سبرة مع الحجاج فكتب إليه من جملة قصيدة لشتان ما بين ابن جعد وبيننا فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ولحق بقطري وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه ولم يرع الحجاج إلا وكتاب فيه شعر قطري الذى كان كتب به إليه وفي أسفل الكتاب أبيات من جملتها :

فمن مبلغ الحجاج أن سميره   قلى كل دين غير دين الخوارج

فطرح الكتاب إلى عنبسة بن سعيد وقال : هذا من سميرى الشيباني وهو خارجي ولا نعلم به ، وما أن تفرغ الحجاج بن يوسف في هذه الثورات والذى أراعيه أن يكون قضى عليها بالعنف تفرغ للفتوحات الإسلامية في المشرق فقام بإرسال المهلب بن أبى صفرة في عام ٧٧هـ الموافق عام ٦٩٦ م الذى ضم خوارزم لحظيرة العالم الإسلامى وظل يجاهد هناك في المنطقة الشرقية حتى فقئت عيناه وعلى الرغم أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يعمل لخدمة العالم الإسلامى في هذا المجال إلا أنه قام بشيء فظيع هدد الدولة الأموية ، هو أنه أخذ الجزية على الموالي الذين يسلمون وكان هذا معول ضعف أخذ يدب في جسم الدولة الأموية والمعاملة السيئة لهم وعدم توليهم المناصب على الرغم أنهم أصحاب علم وللأسف هذه السياسة أخذ يطبقها بعد أن ضم المشرق له في عام ٧٨ هـ الموافق عام ٦٩٧م فقامت الموالي عليه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس في ذى الحجة لعام ٨١ هـ الموافق يناير م ٧٠١ وكانت هذه الثورة عظيمة وكان فيها العديد من الموالي الفرس وكانت من أكابر مواقعها دير الجماجم في ربيع الأول عام ٨٢ هـ الموافق أبريل عام ٧٠١ م حيث خاف فيها عبد الملك بن مروان على ملكه وأتى بنفسه وعرض عليهم عزل الحجاج ولكن دون جدوى واستمر القتال حتى جمادى الآخرة عام ٨٢ هـ الموافق يوليو ٧٠١م وانتهت بقتل عبد الرحمن (وأبيه محمد ابن الأشعث بن قيس هو الذى دل على مخبأ مسلم بن عقيل بن أبى طالب ابن عم الإمام الحسين عليه السلام لابن زياد والى العراقيين عام٦٠هـ الموافق عام٦٨٠م) وانتهاء ثورته لكنها عرفت العرب على قوة وبأس الفرس فاستفاد منهم الشيعة الكيسانية (مؤسسي الدولة العباسية بحكم أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس كان يتزعم ذلك الحزب السياسي الكيساني) حيث يروى المؤرخون ما مدى الضحايا التى نتجت عن هذه الثورة في عام ٨٢ هـ الموافق عام ٧٠١م ؟ ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم وإعطاء الأموال لجنوده بلغ ذلك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فكتب إليه . . أما بعد . . فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذير الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين لأحد من الناس وقد حكم عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال بردها إلى موضعها ثم العمل فيها برأيه وإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل فإن كنت أردت الناس لك فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك من أمير المؤمنين لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وظن بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ وإذا أعطاك الله الظفر بقوم فلا تقتلن جانحًا ولا أسيرًا وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها   طلبت رضاي بالذى أنت طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هاربا   إلي فها قد ضيع الدر حالبه
وإن تر منى غفلة قرشية   فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تر منى وثبة أموية   فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة   فإنك مجزى بالذى أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك مني وإن تعد   يقوم بها يوم عليك نوادبه
ولا ترفعن للناس حقًا علمته   ولا تغضبن فاللين للناس جانبه

فأجابه الحجاج أما بعد . . فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيرى للأموال ولعمرى ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله وما قضيت في أهل

الطاعة ما استحقوه فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفًا وإعطائى أولئك المطيعين تبذيرًا فليسوغني أمير المؤمنين ما سلف وليحد لي حدًا أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله والله ما سلبت نعمة إلا بكفرها ولا تمت إلا بشكرها ولا أصبت القوم خطأ فأديهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم ولا أعطيت إلا لك ولا قتلت إلا فيك وأما ما أتانى من أمريك فأبينهما عزة أعظمهما محنة وقد عبأت للعزة الجلاد وللمحنة الصبر وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنا لم أبغ رضاك وأتقي   أذاك فيومي لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة   تقيه من الأمور الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى هوادة   ومن لم تسالمه فإنى محاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة   فقامت عليه في الصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لصنعه   وأقص الذى تسري إلي عقاربه
فقف لي على حد الرضى لا أجوزه   مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فدعنى والأمور فإننى   شفيق رقيق أهلته تجاربه

فلما قرأ عبد الملك كتابه قال : خاف أبو محمد (يقصد الحجاج بن يوسف الثقفي) صولتى ولن أعود إلى ما يكره ، وهذا ما شجعه أن يبنى مدينة واسط (بين البصرة والكوفة) بالعراق عام ٨٣ هـ الموافق عام ٧٠٢ م لكى تكون مدينة عسكرية تحميه من أى خطر ينشأ عن ذلك ، وضحايا الحجاج للأسف عديدين ومن ضمنهم يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الذى سنتحدث عنه ، أما الآن فيروى المؤرخون ما هو سبب بناء واسط لما حمل الأسرى (أسرى دير الجماجم) إلى الحجاج وهو حينئذ بواسط القصب (بلد أخرى) قبل أن يبنى مدينة واسط قال لحاجبه : قدم إلي سيدهم فيروز بن الحصين فقال له الحجاج أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء قال : فتنة عمت الناس ، فقال : اكتب لي أموالك ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اكتبها أولاً ، قال : ثم أنا آمن على دمى ؟ قال : اكتبها ثم انظر قال : اكتب يا غلام ألف ألفي ألف حتى ذكر مالاً كثيرًا فقال الحجاج أين هى ؟ وعند من هى ؟ قال لا والله لا جمعت بين مالي ودمى . .

فأمر الحجاج فعذب بأنواع العذاب وكان من جملة ما عذب به أن يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يجر حتى يجرح جسده ثم ينضح عليه الخل والملح فلما أحس بالموت قال: إن الناس لا تشكن أنى قتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبدًا فأظهروني للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال فأخرج فصاح في الناس من عرفنى فقد عرفنى أنا فيروز إن لي عند أقوام مالاً فمن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل فلا يؤدين أحد منه درهمًا ليبلغ الشاهد الغائب فأمر به الحجاج فقتل .

وجلس الحجاج يومًا لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس فقام رجل منهم فقال : أصلح الله الأمير إن لي عليك حقًا، قال : وما حقك، قال : سبك عبد الرحمن يومًا فرددت عليه ، فقال: من يعلم ذلك قال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذاك أيها الأمير قال : خلوا عنه ثم قال للشاهد فما منعك أن تنكر كما أنكر قال : لقديم بغضى إياك قال : ولنخل عنه لصدقه .

قال أبو الحسن المدائنى لما ظفر الحجاج بأصحاب ابن الأشعث جلس لضرب أعناقهم عامة النهار فأتى آخرهم برجل من بنى تميم قال له والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا في الذنب

لما أحسنت في العقوبة فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أما فيها رجل يحسن مثل هذا وعفا عنه .

ولما حضر الشعبي (من أئمة الفقه الإسلامى) بين يدى الحجاج سلم بالإمرة ثم قال : أيها الأمير إن الناس قد أمرونى أن أعتذر إليك لغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقًا قد والله خرجنا عليك واجتهدنا كل الجهد فما آلونا فما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا، فقال له الحجاج : أنت والله أحب إلي ممن يدخل علي يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت وما شهدت قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف . وكانت له إصلاحات عديدة منها إنعاش البلاد بعد أن أنهكتها الحروب بعشرين عامًا فأصلح القنوات التى تحمل مياه دجلة والفرات إلى أطراف البلاد وتعهدها بالعناية الدائمة وأصلح السدود التى تصون خصب الأرض من عادية الصحراء ، وقاوم الحجاج بشدة الهجرات الريفية إلى المدن وأقام التجارة على قواعد الطمأنينة والثقة بإصلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس .

وفي آخر عهد عبد الملك بن مروان قامت في الدولة العربية حركة التعريب المعروفة (أى تعريب الدواوين والنقود) فقام هو من جهته بإعجام القرآن الكريم حيث يروى الرواة (أن الناس غبروا يقرؤون في مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه نيفًا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثكثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف الثقفي إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال : إن نصر بن عاصم (وهو أحد أهل القراءات السبع المعروفين وكان بالكوفة) قام بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها فغبر الناس بذلك زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا فكان مع استعمال النقط أيضًا يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون النقط والإعجام فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توف حقوقها اعترى التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين) على أن الحجاج لم يكن يعمل لنفسه ولا يعمل باسمه بل باسم الدولة الأموية .

الحجاج والوليد بن عبد الملك بن مروان :

وفارق الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان الحياة في الخامس عشر من شوال لعام ٨٥ هـ الموافق ٢٢ سبتمبر لعام ٧٠٥ م وتولى الخلافة من بعده ابنه الوليد بن عبد الملك ابن مروان .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك اتسعت الدولة الإسلامية حتى ضمت لها الأندلس وتوسعت الفتوحات في الشرق حيث كان للحجاج الفضل في ذلك ولكن قبل أن نسرد هذا الموضوع في عجالة يجب أن نقول أن الحجاج فتح بابًا للخلاف ظل بعد وفاته هو عزله ليزيد ابن المهلب بن أبى صفرة والغضب على أسرته منذ ربيع الآخر عام ٨٥ هـ الموافق أبريل عام ٧٠٤ م (لأنه كان يؤمن بالتنجيم فقد عرف من خلال حديث العراف أن ملك آله بالمشرق سيزول ويأتى من بعده خليفة للحجاج يزيد بن المهلب بن أبى صفرة) والذى استمرت مشكلته قائمة نتيجة العصبيات القبلية حتى أوائل عهد يزيد الثانى بن عبد الملك بن مروان حتى صفر ١٠٢هـ الموافق يوليو ٧٢٠ م .

لم يقم الحجاج بشيء ذى بال سوى الحرب ضد الأتراك في الجنوب الروسي حاليًا والحرب ضد الهنود في باكستان وقد نجح القائد قتيبة بن مسلم الذى بدأ الحروب من عام

٨٧هـ الموافق عام ٧٠٦ م أنهى في أول مرحلة عام ٩٠هـ الموافق عام ٧٠٩م المرحلة الثانية وهى التى تلت وفاة الحجاج منذ جمادى الآخرة ٩٦ هـ الموافق يناير ٧١٥ م حتى ما قُتل (القائد الإسلامى الكبير قتيبة بن مسلم) في رمضان عام ٩٦ هـ الموافق أبريل عام ٧١٥م بتخطيط من الخليفة الأموى السابع سليمان بن عبد الملك الذى خلف أخاه الوليد وفي هذه المرحلة وصل إلى حدود الصين مع قيرزاغستان . وقام القائد الإسلامى الكبير محمد بن القاسم الثقفي بفتح باكستان من جهة أخرى في عهده ولكن ما لبث أن توفي الحجاج في الخامس من رمضان لعام ٩٥هـ الموافق الحادى عشر من أبريل لعام ٧١٤م عن عمر يناهز الثالثة والخمسين عامًا ولما حضرته الوفاة أحضر منجمًا فقال له : هل ترى في علمك ملكًا يموت ؟ قال : نعم ولست هو ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال المنجم : لأن الذى يموت اسمه كليب . . فقال الحجاج أنا هو والله بذلك كانت سمتنى أمي كليب ، فأوصى عند ذلك . . وكان الحجاج ينشد في مرض موته هذين البيتين وهما لعبيد بن سفيان العكلي:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا   أيمانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم   ما ظنهم بقديم العفو غفار

وكتب إلى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك كتابًا يخبره فيه بمرضه وكتب في آخره

إذا ما لقيت الله عني راضيًا   فإن سرور النفس فيما هنالك
فحسبي حياة الله من كل ميت   وحسبي بقاء الله من كل هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا   ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

وكان مرضه بالأكلة (التخمة أى كثرة الطعام دون حساب) وقعت في بطنه ودعا بالطبيب لينظر إليها فأخذ لحمًا وعلقه في خيط وسرحه في حلقه وتركه ساعة ثم أخرجه وقد لصق به دود كثير . وسلط الله تعالى عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة نارًا وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها ، وشكا ما يجده إلى الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فقال له : قد كنت نهيتك ألا تتعرض إلى الصالحين فلججت فقال له : يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عنى ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي ، فبكى الحسن بكاء شديدًا وأقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يومًا وتوفي في شهر رمضان وقيل في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة وعمره ثلاث وقيل أربع وخمسون سنة وهو الأصح . .

وقال الطبري في تاريخه الكبير توفي الحجاج يوم الجمعة لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمس وتسعين .

وقال غير الطبري : لما جاء موت الحجاج إلى الحسن البصرى سجد لله تعالى شكرًا ، وقال : اللهم إنك قد أمته فأمت عنا سنته وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفى قبره وأجرى عليه الماء .

وكان الحجاج قبل موته قد رأى في منامه أن عينيه قلعتا وكانت تحته هند بنت المهلب بن أبي صفرة الأزدي (وهى شقيقة يزبد بن المهلب) وهند بنت أسماء بن خارجة فطلق الهندين أن رؤياه تتأول بهما (لأنهما كانتا زوجتيه) فلم يلبث أن جاءه نعى أخيه محمد بن اليمن في اليوم الذى مات فيه ابنه محمد بن الحجاج (أى أخو الحجاج وابن الحجاج) فقال والله هذا تأويل رؤياى محمد ومحمد في يوم واحد إنا لله وإنا إليه راجعون ثم قال من يقول شعرًا يسلينى به فقال الفرزدق:

إن الرزية لا رزية مثلها   فقدان مثل محمد ومحمد

ملكان قد خلت المنابر منهما   أخذ الحمام عليهما بالمرصد

وكانت وفاة أخيه محمد لليال خلت من رجب سنة إحدى وتسعين للهجرة الموافق مايو عام ٧١٠ م وهو والي اليمن فكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزيه فكتب الحجاج جوابه يا أمير المؤمنين ما التقيت أنا ومحمد منذ كذا وكذا سنة إلا عامًا واحدًا وما غاب عني غيبة أنا لقرب اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دار لا يتفرق فيها مؤمنان .

مظالم الحجاج بن يوسف الثقفي :

وكان الحجاج قد فعل الكثير من الظلم فلم يكتفي بقتل ابن الزبير وحصاره في مكة المكرمة وإهانة أبناء الصحابة رضوان الله عليهم في الحجاز وكذلك سفك الدماء في العراق والفرس وأكبر جناية قام بها أخذ الجزية من المسلمين ، بل ظلم العديد من الأخيار وعلى رأس هؤلاء صحابي جليل هو أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ رضى الله عنه (وكان آخر الصحابة وفاة) وتابعي جليل هو سعيد بن جبير رضى الله عنهما وإليك هذين المثالين :

فقد روى المؤرخون عنه دخل الصحابي الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أنيس يوم لك مع علي ويوم لك مع ابن الزبير ويوم لك مع ابن الأشعث والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة ، فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ، قال : إياك أعنى صك الله سمعك ، قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون والله لولا الصبية الصغار ما باليت اى قتلة قتلت ولا أى ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبًا وشفق عجبًا وتعاظم ذلك من الحجاج وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك أما بعد فإن الحجاج قال لي هجرًا وأسمعنى نكرًا ولم أكن لذلك أهلاً فخذلنى على يديه فإنى أمت بخدمتى رسول الله ﷺ وصحبتى إياه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وكان مصادقًا للحجاج فقال له دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه وأبلغه منى السلام وقل له يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك فإن عاد لمثلها اكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي وتحسن لك معونتي والسلام .

فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال : جزى الله أمير المؤمنين عنى خيرًا وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة فهذا كان ظني به والرجاء منه فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام ، فقال أنس : أفعل إن شاء الله ، ثم خرج إسماعيل من عند أنس فدخل على الحجاج فقال الحجاج : مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاه فقال إسماعيل أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به فتغير لون الحجاج وخاف وقال : ما أتيتنى به قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضَبًا عليك ومنك بعدًا قال : فاستوى الحجاج جالسًا مرعوبًا فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل الحجاج ينظر

فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى فلما فضه قال : قم بنا إلى أبى حمزة نعتذر إليه ونترضاه فقال له إسماعيل لا تعجل فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتنى بآبدة وكان في الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك وجاوزت قدرك وركبت داهية إدا وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدمًا وإن لم أسوغها رجعت القهقري فلعنك الله من عبد أخفش العينين منفوص الجاعرتين أنسيت مكاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرية بعجم الزبيب والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب والصقر الأرنب وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له إحسانه ولم تتجاوز له عن إساءته جراءة منك على الرب عز وجل واستخفافًا منك بالعهد والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزري وعيسى ابن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حوارى المسيح لعظموه وأكرموه فكيف ؟! وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله وإلا أتاك منى سهم بكل حتف قاض ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون .

أما عن التابعي الجليل سعيد بن جبير حيث يروى الطبري في أحداث عام ٩٤ هـ الموافق عام ٧١٣ م مقتل سعيد بن جبير رضى الله عنه وكان سبب قتل الحجاج إياه خروجه عليه مع من خرج عليه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ،وكان الحجاج قد جعله على عطاء الجند حين وجه عبد الرحمن إلى رتبيل (ملك تركي حيث كان يحكم تركستان) لقتاله ، فلما خلع عبد الرحمن الحجاج كان سعيد فيمن خلعه معه ، فلما هزم عبد الرحمن وهرب إلى بلاد رتبيل هرب سعيد .

فحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو بكر بن عياش ، قال : كتب الحجاج إلى فلان وكان على أصبهان - وكان سعيد ، قال الطبرى أظنه أنه لما هرب من الحجاج ذهب إلى أصبهان فكتب إليه - إن سعيدًا عندك فخذه ، فجاء الأمر إلى رجل تحرج ، فأرسل إلى سعيد: تحول عني ، فتنحى عنه فأتى أذربيجان ، فلم يزل بأذربيجان فطال عليه السنون ، واعتمر فخرج إلى مكة فأقام بها ، فكان أناس من ضربه يستخفون فلا يخبرون بأسمائهم . قال : فقال أبو حصين وهو يحدثنا هذا : فبلغنا أن فلانًا قد أمر على مكة ، فقلت له : يا سعيد ، إن هذا الرجل لا يؤمن ،وهو رجل سوء ،وأنا أتقيه عليك ، فأظعن وأشخص ، فقال : يا أبا حصين ، قد والله فررت حتى استحييت من الله ! سيجيئني ما كتب الله لي ، قلت : أظنك والله سعيدًا كما سمتك أمك ، قال : فقدم ذلك الرجل إلى مكة فأرسل فأخذ فلان له وكلمه فجعل يديره .

وذكر أبو عاصم عن عمر بن قيس ، قال : كتب الحجاج إلى الوليد : إن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري ، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهد وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار ، فأما عمرو بن دينار وعطاء فأرسلا لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج ، فمات طلق في الطريق ،وحبس مجاهد حتى مات الحجاج ،وقتل سعيد بن جبير .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو بكر ، قال : حدثنا الأشجعى قال : لما أقبل الحرسيان بسعيد بن جبير نزل منزلاً قريبًا من الربذة ، فانطلق أحد الحرسين في حاجته وبقى

الآخر ، فاستيقظ الذى عنده ، وقد رأى رؤيا فقال : يا سعيد ، إنى أبرأ إلى الله من دمك إنى رأيت في منامي فقيل لي ك ويلك تبرأ من دم سعيد بن جبير اذهب حيث شئت لا أطلبك أبدًا ، فقال سعيد : أرجو العافية وأرجو وأبى حتى جاء ذاك فنزلا من الغد ، فرأى مثلها ، فقيل : ابرأ من دم سعيد ، فقال : يا سعيد ، اذهب حيث شئت ، إنى أبرأ إلى الله من دمك حتى جاء به ، فلما جاء به إلى داره التى كان فيها سعيد وهى دارهم هذه حدثنا أبو كريب ، قال حدثنا أبو بكر قال : حدثنا يزيد بن أبى زياد مولى بنى هاشم قال : دخلت عليه في دار سعيد هذه ، جيء به مقيدًا فدخل عليه قراء أهل الكوفة . قلت : يا أبا عبد الله فحدثكم ؟ قال : إى والله ويضحك ، وهو يحدثنا ،وبنية له في حجره فنظرت نظرة فأبصرت القيد فبكت ، فسمعته يقول : أى بنية لا تطيرى ، إياك - وشق والله عليه - فاتبعناه نشيعه ، فانتهينا به إلى الجسر ، فقال الحرسيان : لا نعبر به أبدًا حتى يعطينا كفيلاً ، نخاف أن يغرق نفسه ، قال : قلنا : سعيد يغرق نفسه فما عبروا حتى كفلنا به .

قال وهب بن جرير : حدثنا أبى قال : سمعت الفضل بن سويد قال: بعثنى الحجاج في حاجة فجيء بسعيد بن جبير ، فرجعت فقلت : لأنظرن ما يصنع ، فقمت على رأس الحجاج ، فقال له الحجاج : يا سعيد ، ألم أشركك في أمانتى ! ألم أستعملك ! ألم أفعل ! حتى ظننت أنه يخلى سبيله ، قال : بلى ، قال : فما حملك على خروجك علي ؟ قال : عزم علي ، قال : فطار غضبًا وقال : هيه ! رأيت لعزمة عدو الرحمن عليك حقًا ، ولم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي عليك حقًا ! اضربا عنقه ، فضربت عنقه ، فندر رأسه عليه كلمة بيضاء لا طية صغيرة .

وحدثت عن أبى غسان مالك بن إسماعيل ، قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر عن رجل قال : لما قتل سعيد بن جبير فندر رأسه لله ، هلل ثلاثًا :مرة يفصح بها ، وفي الثنتين يقول : مثل ذلك فلا يفصح بها .

وذكر أبو بكر الباهلي ، قال : سمعت أنس بن أبى شيخ يقول : لما أتى الحجاج بسعيد ابن جبير ، قال : لعن الله ابن النصرانية - قال : يعنى خالد القسري لأن أمه كانت مسيحية وظلت على ذلك وهو الذى أرسل به من مكة - أما كنت أعرف مكانه ! بلى والله ما البيت الذى هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه فقال : يا سعيد ، ما أخرجك علي ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب مرة ، قال : فطابت نفس الحجاج ، وتطلق وجهه ، ورجا أن يتخلص من أمره ، قال : فعاوده في شيء ، فقال له : إنما كانت له بيعة في عنقي ، قال : فغضب وانتفخ حتى سقط أحد طرفي ردائه عن منكبه ، فقال : يا سعيد ، ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير ، ثم أخذت بيعة أهلها ، وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ! قال : بلي ، قال : ثم قدمت الكوفة واليًا على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة ، فأخذت بيعتك له ثانية ! قال : بلى ، قال : فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين ، وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك ! اضربا عنقه ، قال : فإياه عنى جرير بقوله :

يا رب ناكث بيعتين تركته   وخضاب لحيته دم الأوداج

وذكر عتاب بن بشر ، عن سالم الأفطس ، قال : أتى الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب ، وقد وضع إحدى رجليه في الغرز - أو الركاب - فقال : والله لا أركب حتى تبوء مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضربت عنقه فالتبس مكانه ، فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه قال : القيود التى على سعيد بن جبير ، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود .

قال محمد بن حاتم : حدثنا عبد الملك بن عبد الله بن هلال بن خباب قال : جيء بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال : أكتبت إلى مصعب بن الزبير ؟ قال : بل كتب إلي مصعب ، قال : والله لأقتلنك ، قال : إنى إذًا لسعيد كما سمتنى أمي ! قال : فقتله ، فلم يلبث بعده إلا نحوًا من أربعين يومًا ، فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول : يا عدو الله ، لم قتلتني ؟ فيقول : ما لي ولسعيد بن جبير ! ما لي ولسعيد بن جبير .

على الرغم من أن سعيد بن جبير كان من أعداء الدولة الأموية إلا أن قتله كان جريمة بشعة ندم عليها الحجاج طيلة حياته .

ولم يسلم من شر الحجاج النساء ولا الضعاف من الرجال حيث يروي مدى لعبه بالناس الرواة حيث قال سعيد بن أبى عروبة : حج الحجاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأتى بغذائه فقال لحاجبه انظر من يأكل معى فذهب فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال أجب الأمير فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تغد معى فقال : إنه دعانى من هو خير منك قال : ومن ؟ قال : الله دعانى إلى الصوم فأجبته ، قال: في هذا الحر الشديد ، قال : نعم صمت ليوم هو أشد حرًا منه قال : فأفطر وصم غدًا ، قال : إن ضمنت لي البقاء لغد ، قال : ليس ذلك لي ، قال : فكيف تسألنى عاجلاً بآجل لا تقدر عليه ، قال : إن طعامنا طعام طيب قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ إنما طيبته العافية .

قال الأصمعى : عن علي بن مسلم الباهلي قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلامًا فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ، فقالت : إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه فأمر بها فقتلت .

وقد وصف الحجاج نفسه بأنه ظالم فكما روي عنه أنه حادث عبد الملك بن مروان ، وقال الأصمعى : قال عبد الملك يومًا للحجاج ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه فصف عيب نفسك ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين فأبى فقال : أنا لجوج حقود حسود ، فقال عبد الملك : ما في الشيطان شر مما ذكرت ، وفي رواية أنه قال : إذا بينك وبين إبليس نسب .

لذلك اشتهر الحجاج في التاريخ الإسلامي بأنه المبير وهذا أكبر شرف له حيث تحدث عنه الرسول ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدين حيث روي عن عمر بن الخطاب جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان فصلى لنا صلاة فسها فيها حتى جعل الناس يقولون سبحان الله سبحان الله فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثًا أو رابعًا فقال : يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ اللهم إنهم قد لبسوا عليهم فالبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم .

وروي عن الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال في فضل الحجاج : قال علي بن أبى طالب اللهم كما ائتمنتهم فخانوني (يقصد بها أهل العراق وحنثهم للإمام علي كرم الله وجهه) ونصحت لهم فغشوني فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية ، قال يقول الإمام الحسن بن علي رضى الله عنهما وما خلق الحجاج يومئذ .

وكان الحجاج عثمانيًا أمويًا يميل إليهم ميلاً عظيمًا ويرى أن خلافهم كفر ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم .

وعن هشام بن حسان : أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا **(قتلهم عزل خاويين من السلاح)** فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا .

وقال الذهبى في ترجمته : كان ظلومًا ، جبارًا ، ناصبيًا ، خبيثًا ، سفاكًا للدماء ، قد سقت من سوء سيرته في تاريخى الكبير ، وحصاره لابن الزبير في الكعبة ، ورميه إياها بالمنجنيق ، وإذلاله لأهل الحرمين ، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله فنسبه ولا نحبه ، بل نبغضه في الله ، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان .

وكذلك قال أمير المؤمنين الأموى الثامن عمر بن عبد العزيز **في فضله لو تخابثت الأمم** فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم .

بقلم

محب لأهل البيت

الأنصارى الخزرجى / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ

الإسكندرية

* * *

الفهرس

تقديم ٣
أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بن العوام ٥
مولده ٥
عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إبان الفتنة الكبرى ٧
عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وموقعة الجمل ١٢
عبد الله بن الزبير رضى الله عنه في عهد معاوية بن أبى سفيان ٢٩
عبد الله بن الزبير رضى الله عنه في الفتنة الثانية ٣٠
استشهاد عبد الله بن الزبير ٥٥
عبد الله بن الزبير في الميزان ٥٩
روايته للحديث الشريف ٦٢
أولاده ٦٣

خطيب الظلماء الحجاج بن يوسف الثقفي ٦٥
مولده ٦٥
تقربه لأصحاب المناصب ٦٦
ولايته للعراق ٦٨
الحجاج والوليد بن عبد الملك بن مروان ٧٣
مظالم الحجاج بن يوسف الثقفي ٧٥

طبعت بمطابع الحرمين
ت:2979735 - 0101009352